جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

نداء النبى صلى اللّه عليه وسلم باسمه (محمد) فى صحيح البخاري مقاماته وأسراره البلاغية

الدكتور
كمال أحمد محمد زين
مدرس البلاغة والنقد
فى كلية البنات الإسلامية بأسيوط

العدد الخامس عشر

للعام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م
الجزء الثالث

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فقد اعتنى علماؤنا القدماء والمحدثون بالنداء عناية فائقة، شأنه في ذلك شأن الظواهر اللغوية الأخرى، وهو أسلوب تتعانق فيه أركان النداء لتلعب دوراً أساسياً في عملية الاتصال بين المتكلم والمخاطب، ولكل ركن من أركانه بلاغته المرتبطة بمقام الكلام والغرض منه في كل جملة، فهو أسلوب بلاغي ذو طبيعة لغوية خاصة؛ لأن المتكلم فيه ليس مجرد مرسل لأدوات النداء فقط ، وإنما هو يعبر عن مشاعره وأفكاره تعبيراً مؤثراً يرتبط بأحوال المخاطب قرباً وبعداً ومنزلة ، فهو بذلك لون من الخطاب يرتبط بأغراضه المتنوعة ، وطرق أدائه الكامنة في استخداماته المختلفة.

ولا يمكننا الكشف عن أسرار هذا الأسلوب بمعزل عن دراسته في النصوص المختلفة ، واستخراج طرائق استعماله المتنوعة في الكلام البليغ.

والناظر في الحديث النبوي الشريف يجد أنه يذخر بأساليب

النداء المتنوعة، سواء منها ما كان نداءً من النبي ﷺ، أو نداءً له : من الله تعالى، أو غيره من الملائكة أو الأنبياء أو الصحابة من قرابته أو من غيرهم أو الأعراب أو الكفار أو أهل الكتاب ، وقد ارتبط نداء كل منهم بنفسيته، وطبيعة تكوينه، ودرجة قربه من النبيﷺ أو بعده، وسياق الكلام ومقامه، وقصد المنادى ونيته ، وكل كلام مهما كانت طبيعته يرتبط بالنية والقصد والمقام شعراً كان أم نثراً.(١)

ويطرح هذا البحث قضية نداء النبيﷺ باسمه العلم (محمد) في الحديث النبوي لبيان أثر اختيار لفظ المنادى في بيان الغرض البلاغي للنداء، ويتبع ذلك أن يتناول البحث ما تشتمل عليه الجملة الندائية من معانٍ، وبيان ارتباط ذلك كله بالنظم الوارد.

وقد كان من منهج شُرَّاح الحديث عند ورود نداء للنبيﷺ أن يذكروه ، أو يشيروا إلى وروده بروايات أخرى فقط دون أن يدرسوا أسراره البلاغية المتنوعة، ولم يكونوا مطالبين بذلك ، فهذا ليس عملهم بالأساس ، كما وجدتهم لا يفرقون بين ندائه ﷺ في الحديث النبوي الشريف بالاسم العلم في بعض المواضع ، وبين ندائه بالكنية أو بأوصافه المختلفة في البعض الآخر، ولا يذكرون سبب اختيار لفظ المنادى دون غيره في هذا السياق أو ذاك ، وقد ذكر بعضهم " أن الألفاظ التي كان النبيﷺ يخاطب بها: يا محمد، يا أبا القاسم، يا رسول الله ، والأدب بل الأحسن أن يخاطب بـ(يا رسول الله)" (٢) ولم يزد شراح الحديث على ذلك فيما وجدوه من نداء النبيﷺ في الأحاديث

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص١١طبع دار الكتب العلمية – لبنان.

(٢) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١٠١/١٦ طبع دار إحياء التراث العرب بيروت.

المختلفة ، فكان ذلك إشارة هامة دفعتني إلى دراسة موضوع نداء النبي ﷺ باسمه (محمد) في الحديث الشريف وبيان الوجوه البلاغية لمثل هذا النداء.

يضاف إلى ذلك أن النداء عنصر مهم من عناصر الخطاب النبوي ، وسر من أسرار بلاغته ﷺ ، كما أن الخطاب الموجه للنبي ﷺ في الأحاديث النبوية بهذه المثابة من البلاغة والدقة والإحكام والقصد والاختيار، وهو مصور لطبيعة وسمت الكلام الأول الوارد على ألسنة رواة الحديث من صحابة رسول الله ﷺ ، وهو مظهر بارز من مظاهر البلاغة في الحديث النبوي الشريف.

كان كل هذا دافعاً لي إلى جمع الشواهد التي ورد فيها نداؤه ﷺ بالاسم (محمد) لدراستها دراسة متأنية؛ لبيان الوجه فيها؛ ذاكراً مدى ملاءمة كل نداء للسياق الوارد فيه، مع إيراد الأدلة والبراهين التي تقوي ذلك وترجحه.

وقد نودى النبي ﷺ في الحديث الشريف بهذا النداء في سياقات متنوعة، تم تحديدها في هذا البحث بدقة تامة من خلال أحد أهم كتب الصحاح وهو كتاب(الجامع الصحيح للبخاري) وذلك لأن البخاري أول من صنف في الصحيح، ولم يخرج فيه إلا ما صح عنده ، وما تركه من الصحيح كان أكثر، وكتابه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، وقد ذكر ابن خلدون نقلاً عن أشياخه " أن شرح كتاب البخاري دين على الأمة، يعنون أن أحداً من العلماء لم يُوفِ ما يجب له من الشرح ".[١]

وقد تعددت الدراسات التي تناولت بلاغة الأسلوب الإنشائي في

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١/٤٤٣ طبع دار القلم- بيروت١٩٨٤م ، ط الخامسة .

الحديث النبوي، فكان منها: الأساليب الإنشائية غير الطلبية في أحاديث رياض الصالحين للنووي[١] وأسلوب الاستفهام في الأحاديث النبوية[٢] وبلاغة أسلوب القسم في الحديث النبوي الشريف[٣] وغير ذلك.

وجميع هذه الدراسات ذات قيمة في بابها لكنها لم تتناول موضوع البحث من قريب ولا بعيد، ولم أجد فيما قرأت دراسة تناولت هذا الجانب في حديث رسول الله ﷺ من الناحية البلاغية أو اقتربت منه، اللهم إلا ما وجدته من دراسة لأحد الباحثين عنوانها: نداء النبي بأوصافه في الذكر الحكيم مقاماته وأسراره البلاغية[٤] إلا أنها لم تشر إلى وجوه نداء النبيﷺ باسمه في الحديث النبوي الشريف بأي إشارة لكونها غير معنية بذلك أصلاً ، ولانصبابها على نداء الصفة أو اللقب في القرآن الكريم دون سواه.

وقد جاء هذا البحث تحت عنوان :

" **نداء النبي ﷺ باسمه (محمد) في صحيح البخاري مقاماته وأسراره البلاغية** ".

واقتضت طبيعة البحث أن يتكون من ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد وتعقبها الخاتمة والفهارس.

أما المقدمة فاشتملت على بيان الفائدة المرجوة من دراسة الموضوع

---

(١) ماجستير للباحث: أحمد محمد أمين إسماعيل، كلية الآداب جامعة الموصل، العراق١٤٢٣ه- ٢٠٠٢م.

(٢) ماجستير للباحثة: ناغش عيدة، كلية الآدب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر٢٠١٢م.

(٣) مقال د.أميمة بدر الدين، مجلة جامعة دمشق، مجلد٢٦ ،سنة٢٠١٠م.

(٤) وهي دراسة للدكتور/ سلامة دردير محمد علي، مطبعة السلاموني ط ٢٠٠٥م.

وأسباب الإقدام عليه، وخطته ، ومنهجه .

وفي التمهيد تعرضت لدراسة ثلاثة عناوين هي :

أولاً: بلاغة أسلوب النداء.

ثانياً: النداء وجه من وجوه الخطاب في الحديث النبوي الشريف.

ثالثاً: طرائق مناداة النبيﷺ في الحديث النبوي الشريف، والعوامل المؤثرة فيها.

أما المبحث الأول فتناولت فيه نداء النبيﷺ باسمه (محمد) في مقامات علوية.

والمبحث الثاني تناولت فيه نداء النبيﷺ باسمه (محمد) في مقام حواره مع الأعراب.

والمبحث الثالث تناولت فيه نداء النبيﷺ باسمه (محمد) في مقام حواره مع غير المسلمين.

وتنتهج هذه الدراسة المنهج التحليلي المعتمد على بيان السياقات المختلفة في كل نداء، وذلك بأن أورد أولاً الأسلوب الندائي في صحيح البخاري، ثم أتتبعه في السياقات المختلفة ، وأضم كل نظير إلى نظيره، وأوضح الأسرار البلاغية التي تجمع كل مجموعة من الأحاديث التي وردت في سياق واحد، وأوجه الفرق والاختلاف فيما بينها إن وجدت، مع ذكر بعض الإحصاءات الممكنة في كل أسلوب.

وأرجو من الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، محققاً للغرض من تأليفه، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

والله ولي التوفيق

التمهيد

أولاً: بلاغة أسلوب النداء:

النداء لغة : التصويت والدعاء[١].

واصطلاحاً : طلب إقبال المدعو على الداعي لأمر ما بحرف يقوم مقام فعل النداء ويتضمن معناه[٢] وأدواته ست : (أ، أي، يا، هيا، أيا، وا)[٣].

وتأتي أدوات النداء على نوعين:

١- نداء القريب حساً أو معنى، وأداته: الهمزة ، وأي.

٢- نداء البعيد، وأداته: يا، وهيا، وأيا، ووا [٤].

وقد تتبادل هذه الحروف أدوارها بناءً على منزلة المنادى قرباً أو بعداً، وقد تحذف الأداة في بعض المواضع، وقد لجأ إلى هذه القسمة علماء اللغة والبلاغة معاً ، ويرى البلاغيون أن مبحث النداء يتناول ثلاثة أركان هي: أداة النداء، والمنادى، وجملة النداء، وبلاغة النداء تدور حول النظر في هذه الأركان وبيان مدى ارتباط كل منها بالآخر.

---

(١) لسان العرب لابن منظور٥/٣١٥ ، ٣١٦ ، مادة (ندى) طبع/ دار المعارف سنة ١٣٩٣هـ .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش : ١١٨/٨ طبع عالم الكتب ، بيروت (بدون) والمطول للسعد ٤٣٠ ، ٤٣١ طبع دار الكتب العلمية بيروت ط/ أولى ٢٠٠١م.

(٣) مختار الصحاح للرازي ٢٠/١ تحقيق : محمود خاطر الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – ١٤١٥ه – ١٩٩٥م.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي : ص ١٠١ تحقيق / نعيم زرزور طبع دار الكتب العلمية ، ط ثانية ١٩٨٧م ، وهمع الهوامع فى شرح جمع الجوامع للسيوطى: ٢٨/٢ تحقيق / أحمد شمس الدين ، طبع / دار الكتب العلمية ، ط/ أولى ١٩٩٨م .

أما المنادى فقد نظر إليه العلماء من ناحيـــة حكمـــه الإعرابـــي معرفة أو نكرة مقصودة أو غير مقصودة أو مضافاً أو شـــبه مضـــاف، وتلك نظرة لغوية خالصة، لكن علماء البلاغة لم يتطرقوا كثيـــراً إلـــى النظر إلى المنادى، بل تجاوزوه إلى الجملة الندائية، فذكروا أغراضـــها الحقيقية والمجازية فقط ، دون نظر إلى بقية عطاءات النداء وأسراره ، وقد حددوا هذه الأغراض من خلال العلاقة التي تنشأ بين المتخـــاطبين مباشرة بعد إحداث التركيب اللغوي الندائي والتصويت بـــه، فـــالغرض الحقيقي للنداء عندهم هو الدعوة وطلب الإقبال، وقد يخرج النداء عـــن معناه الأصلي إلى معاني بلاغية متعددة تفهم بمساعدة المقـــام، وهـــي كثيرة لا تنحصر(١).

والنداء وفق تعريفه أسلوب إنشائي يتضـــمن معـــاني الـــدعوة والطلب والإقبال والاستحضار، يقدم بين يدي المخاطبـــات كمـــا يقـــدم الاستفهام والعرض والتمني والترجي والدعاء كي يكون الكلام مأنوســـاً فيتقبل، وهو لون من الخطاب لا يكون إلا فى أمر مهم ، و يرد بعـــده الخبر، وحين يعظم هذا الأمر يصحب النداء أساليب أخرى لهـــا تـــأثير قوى كالأمر والنهى والاستفهام ، وغالباً ما يتقدم النداء ؛ لضمان اهتمام المخاطب وإصغائه والتفاته، وتتبعه لما يلقى عليه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ البقرة٢١ ، ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر١٦(٢) وهـــو

---

(١) ينظر: المطول للسعد ١٣١، وحاشية الدسوقى ٣٣٤/٢ – ٣٣٧ (شروح) ، وبغية الإيضاح للشيخ/عبد المتعال الصعيدي ٥٩،٥٨/٢ طبع محمد على صبيح ط٨.

(٢) ينظر: النداء بين النحويين والبلاغيين د.مبـــارك تريكـــي١٤١ ، ١٤٢ مقـــال منشور بمجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم – الجزائر– عدد ٧ عـــام ٢٠٠٣م، والأساليب الإنشائيةوأسرارها فى القرآن الكريم د/ صباح دراز٢٧٦، ط الأمانة، ط/ أولى ١٩٨٦م.

حافل بالأسرار البلاغية المتنوعة .

ثانياً: النداء وجه من وجوه الخطاب في الحديث النبوي الشريف:

أصل الخطاب والمخاطبة هو مراجعة الكلام بين متحدث وآخر، والمتكلم يقال له : مخاطِب، والسامع يقال له: مخاطَب، وما يدور بينهما يسمى مخاطبة(١).

والنداء لون من ألوان الخطاب الذي يقصد به توجيه الكلام نحو الغير للإفهام ، سواء كان حاضراً أم غائباً(٢).

وقد ورد الخطاب عند البلاغيين في أكثر من موضع، كما في حديثهم عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والالتفات، والأسلوب الحكيم، وتعريف المسند إليه، وتعريف الحقيقة والمجاز، والإيجاز والإطناب، وخطاب العام، والتجريد وغير ذلك.

ولما كان النداء لوناً من ألوان الخطاب فقد نبه أهل العلم إلى ارتباطه بخطابات مختلفة تستدعيه حسب ما يقتضيه المقام، فالنداء يكون:

١- نداء مدح، مثل نداء الله رسله وأنبياءه وأهل وده وأحبابه بـ (يا أيها الرسول) و(يا أيها النبي) و(يا أيها الذين آمنوا) .

٢- نداء ذم، مثل نداءات العصاة والكفار، نحو: (يا أيها الذين كفروا) .

٣- نداء تسمية، مثل نداء الأعلام بأسمائها (يا نوح، يا هود، يا مريم، يا

---

(١) ينظر: النداء بين النحويين والبلاغيين د.مبارك تريكي١٣٧ ، ١٣٨.

(٢) ينظر: الكليات للكفوي ٦٥٨/١ تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت١٤١٩هـ -١٩٩٨م ، والنداء بين النحويين والبلاغيين د.مبارك تريكي١٣٧ ، ١٣٨.

عيسى) .

٤- ويكون الخطاب بالنداء أيضاً للتنبيه، أو الإضافة، أو النسبة، أو التصنيف(١).

وقد اتفق العلماء على أن كلام النبي ﷺ قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة وحسن البيان(٢)، وقد جاء النداء لوناً من الخطاب في حديثه مع الله تعالى، أو غيره من البشر، أو الكائنات المختلفة، وما زال العلماء إلى يومنا هذا يتحدثون عن بلاغة كلام النبيﷺ وحسن موقعه لدى السامع، وإذا كان كلام النبي ﷺ بهذه المنزلة فإنه كان يخاطب كل إنسان على قدر عقله، وعلى مستوى إدراكه ظهر هذا، أو دق، أو خفي، فخطابه للأعراب مثلاً يختلف عن خطابه لغيرهم ليناً أو شدة، وكذا خطابه للملوك والأمراء يختلف عن خطاب الوفود والرسل في المكانة والمسؤولية واللغة، وكذا خطاب النساء والصبيان يجيء مناسباً لعقليتهم وطبيعتهم(٣)، وكان النداء عنصراً مهماً من عناصر الخطاب النبوي في كل ذلك ، كما كان سراً من أسرار بلاغته ﷺ ، وكان الخطاب الموجه للنبي ﷺ في الأحاديث النبوية بهذه المثابة من البلاغة والدقة والإحكام

---

(١) الإتقان للسيوطي ٨٨/٢ طبعة المعاهد الأزهرية.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٨/٢تحقيق.عبدالسلام هارون .مكتبة الخانجي .ط السابعة ١٤٢٨ه/ ١٩٩٨م، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ٢٣٤ ، طبع مكتبة الإيمان بالمنصورة – مصر، ط الأولى ،١٤١٧ه/ ١٩٩٧م .

(٣) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين (دراسة بلاغية تحليلية) د/ يوسف عبد الله محمد العليوي ٣٥ ـــــ ٤٨ (رسالة دكتوراه) مطبوعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – السعودية ١٤٣١هـ /٢٠١٠م ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم في البيان النبوي د/ محمد أبو نبوت ٨- ١٠طبع مكتب وصفي القاهرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

والقصد والاختيار، وهو ينقل لنا جانباً من جوانب نفوس المنادين وطبائعهم وسلوكهم مع النبيﷺ .

والمقصود بخطاب النبي ﷺ عن طريق النداء هنا هو توجيه الكلام إلى الرسول ﷺ على وجه السؤال أو الجواب أو المحادثة، وقد يكون نداءً مباشراً له ﷺ أثناء حياته ، وقد أوثر خطاب النبي ﷺ في مواطن كثيرة بالنداء على خطابهﷺ خالياً من النداء، وذلك لتعظيم المنادى، أو تعظيم الأمر المدعو له، أو للحرص على إقبال المنادى حسب ما يقتضيه المقام، كما سيتضح فيما بعد.

ثالثاً: طرائق مناداة النبي ﷺ في الحديث الشريف والعوامل المؤثرة فيها:

وردت مناداة النبي ﷺ في الحديث النبوي بأكثر من نداء، تبعاً لتعدد أسمائه وصفاته وكناه، وتعدد الأسماء والصفات لمسمى واحد أمارة واضحة على مكانته، وتعدد خصائصه، ورفعة منزلته.

ويمكن تحديد العوامل المؤثرة في نداء النبي ﷺ بالاسم (يا محمد) في الحديث النبوي الشريف فيما يلي :

أولاً: طبيعة المنادِي وأداة النداء ، ورد هذا النداء من الله تعالى ، أو ملائكته فقط لمكان القرب في هذا النداء، أما الصحابة فلم يكن أحد منهم يجترئ أن ينادي النبيﷺ باسمه؛ لأن النداء بالاسم لا توقير فيه بخلاف الكنية، وإنما كان يناديه باسمه الأعراب ممن لم يؤمن منهم، أو لم يرسخ الإيمان بقلبه ، أو الكفار واليهود ، ولم يكن غير المسلمين يخاطبونه بقولهم: يا رسول الله، بل كانوا يقولون: يا محمد.(١)

---

(١) فيض القدير ١١٢/٤.

واستخدم المنادون للنبيﷺ في صحيح البخاري بعض أدوات النداء فوجدنا: (يا) و(أي) وارتبطت كل أداة بالموقف والمقام ، وكانت أكثر الأداتين وروداً هي (يا) كالقرآن الكريم، وإذا كان للأداة المنادى بها مدخل في عذوبة هذا الأسلوب لأنها صوت ينبه ويثير، فإن لنوع المنادي وما يتصل بندائه من أغراض أكبر الأثر في دقة هذا الأسلوب ،ونفاسته ، والارتياح نحوه .

والملاحظ أن القرآن الكريم مثلاً لم يستخدم من أدوات النداء إلا (يا) وقد كثر ورودها مع أى ، وأيتها، وتلك طريقة القرآن التي سلكها، لما فيها من تنبيه وإثارة ، وتقريب وإدناء بلطف وتهيئة لما يلقي علي المنادي من أوامر ونواهٍ ، فمواجهة المخاطب بالأمر والنهي مباشرة فيها جفوة وقسوة، لذا يجب أن يتلطف المتكلم لأمره ونهيه حتى يقع كلامه برداً وسلاماً علي نفس مخاطبه فتتعشقه النفس ويصغي إليه القلب، ولقد أخرجت مخاطبات النبيﷺ في الحديث النبوي على هذا النحو، فوردت فيه (يا) كثيراً ، وجاء التنبيه بها في أكثر النداءات.

وقد ذكر الزمخشرى : أن (يا) حقيقة فى البعيد ، ولا تستعمل فى القريب إلا مجازاً ؛ لتنزيله منزلة البعيد ، إما لاستبعاد الداعى نفسه عن مرتبة المنادى ، أى : تصور نفسه فى مكان بعيد عن تلك الحضرة ، فقولنا : " يا الله " مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، أو للتنبيه على عظم المدعو إليه وعلو شأنه حتى كأن المنادى مقصر فى أمره، غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال نحو:﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه﴾ المائدة ٦٧ ، أو للحرص على إقبال المنادى ، أى : الرغبة والرضا بذلك ، فصار إقباله كالبعيد ؛ لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه فى غاية

البعد " [١].

ثانياً:لفظ المنـــادَى : يسمى نداء الاسم عند العلماء (خطـــاب التســـمية) أو(خطاب العين) [٢]: وهو أن يخاطب المنادى باسمه العلم، وقـــد ذكـــر العلماء أسماء عديدة للنبي ﷺ معظمها مأخوذ مـــن القـــرآن والحـــديث والأثر، فقد ورد أن النبي ﷺ قال : " لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمـــد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب " [٣] .

والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء أختص بها، لم يســـم بها أحد قبلي أو معظمة مشهورة في الأمم الماضية، لا أنه أراد الحصر فيها[٤] و(محمد) هو اسمه الأشهر، أما (أحمد) فهو الاسم الثاني له، وقد قيل: إن أحمد أسبق من محمد؛ لأن أحمد وقع في الكتب السالفة، ومحمد في القرآن العظيم، وإليه ذهب القاضي عياض والسهيلي وغيرهما[٥].

وعلى هذا جاء نداء النبي ﷺ باسمه العلم في الحـــديث النبـــوي الشريف في مواضع متعددة بالاسم (محمد) ؛ لأنه الاسم المتعارف عليه لدى المسلمين ولذلك لم ينادوه بغيره من الأسماء نحو (أحمد) مثلاً؛ لأنه اسمه في الكتب السابقة، ولم ينادوه كذلك ببقية الأسماء؛ لأنها صفات لا

---

(١) الكشاف للزمخشري ٨٩/١ طبع دار الريان ط / ثالثـــة ١٩٨٧م، وجماليـــة الخبر والإنشاء د. حسين جمعة ١٨٦منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٥م.

(٢) البرهان ٢٢٨/٢.

(٣) صحيح البخاري ١٢٩٩/٣.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني٥٥٦/٦ .الناشر: دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩هـ .

(٥) فتح الباري ٥٥٥/٦، وإرشاد الساري ٢١/٦.

أسماء، وقد أفردت بالخبر في الحديث بعد الاسمين الأولين، وشرحت معانيها، وشأنها في التسمية شأن بقية أسمائه ﷺ كالشاهد، والمبشر، والنذير، والمبين ، والمذكر، والسراج المنير، وغيرها، وهي صفات لا أسماء لم يرد نداؤه ﷺ بها في الحديث أو الأثر.

ثالثاً: الغرض من النداء ، أصل النداء بالاسم يقصد به إقبال المنادى، وتهيئته لتلقي الكلام، وهو يميز المسمى ويحدده، وقد تلمح فيه دلالة الوصفية، وقد ورد هذا النداء في سياقات متنوعة من الحديث الشريف، وقد وقع هذا على خلاف الوارد في القرآن الكريم " فلم يقع في القرآن النداء بـ (يا محمد) بل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ تعظيماً له وتبجيلاً، وتخصيصاً بذلك عن سواه" (١) .

وقد علل بعض أهل العلم ورود الاسم الشريف في الخبر دون الخطاب أو النداء في القرآن بأنه لتعليم الناس بأنه رسول الله ﷺ وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، وقد نقض هذا القول بعضهم معللاً بعدم ظهور أمر التعليم والتلقين فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ آل عمران ١٤٤ وليس هناك إشارة إلى التعليم فى قوله : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ محمد ٢. (٢)

وقد دفع ذلك بعض أهل العلم إلى أن يضيف علة لذكر النبى ﷺ باسمه فى القرآن وأنه إنما كان لزيادة تأكيد وصف البشرية التى عُنِىَ

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٢٦/٢، ٤٢٧ تحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعرفة – بيروت– ١٣٩١ه.

(٢) ينظر: روح المعانى للآلوسي: ٢١٧/٢١ ، ٢١٨ طبع دار الكتب العلمية – بيروت ط/ أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

القرآن بتقريرها كل العناية [١].

وناقش بعضهم هذا التعليل دون أن يذكر علة جديدة لذكر اسم النبى ﷺ فى القرآن فقال: إنه لا يظهر فى سياق الآيات ؛ لأن جميع الآيات التي ذكر فيها النبيﷺ باسمه قد جاءت فى سياق خطاب المؤمنين الذين يؤمنون به ، ويقرون بأنه بشر مرسل من الله تعالى ؛ ولذلك فهم لا يحتاجون إلى التأكيد على بشريته ﷺ.

كما أن تقرير البشرية يستدعى أن يعبر عنه بالوصف" بشر" ، فهذا أدخل فى تقرير بشريته ﷺ وتأكيدها، أما التعبير بالعلم، فيدل على أن الحكم المقصود من الكلام يتعلق بذات النبى ﷺ وشخصه دون أن يكون لأوصافه دخل فى هذا الحكم، وهذا هو الواضح فى سياق الآيات التى جاء التعبير عن النبى ﷺ باسمه، ويدل على ذلك اطراد التعبير عن السيدة مريم – رضى الله عنها – باسمها العلم فى كل أماكن ورودها فى القرآن ؛ وذلك لأن المعجزة تحققت معها فى شخصها دون اعتبار لأوصافها.[٢]

لكن يمكن القول إن الغرض من إطلاق الأسماء على مسمياتها هو تقييد مطلقها، وتخصيص ما كان عاماً منها، ولذلك جاء ذكر اسمه في القرآن مندرجاً تحت ذلك، لكن الله تعالى ناداه بعد ذلك بصفتي النبوة والرسالة ليتميز بهما، ويقتصر عليهما في النداء دون الاسم العلم، وعلى

---

(١) ينظر: من أسرار التعبير القرآني في سورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى٤٥ الناشر مكتبة وهبة ط / ثانية ١٩٩٦م.

(٢) ينظر: التعبيرات القرآنية التى جاءت على وتيرة واحدة دراسة بلاغية ص ١٥٤ محمد أحمد أحمد محمد ــ دكتوراه ــ كلية اللغة العربية بالقاهرة– جامعة الأزهر٢٠٠٠م.

هذا فقد وردت نداءات القرآن لإبراز هذا المعني باختيار أحسن المسميات له ﷺ وهو وصف النبوة أو الرسالة، ولم يكن ذلك ليلتبس مع بقية الأنبياء عليهم السلام ؛ لأن خطاب القرآن الكريم خطاب للنبي ﷺ دون سواه، وهو حاضر شاهد يتلقاه عن ربه، ويبلغه أمته.

أما الحديث الشريف فقد اشتمل على نداء النبيﷺ باسمه العلم (محمد) ؛ وذلك لأن المخاطبين فيه للنبيﷺ متعددون ، فناداه الله تعالى، وجبريل عليه السلام، وأهل قرابته، والأعراب، وأهل الكتاب، والكفار؛ وذلك لأن الحديث النبوي الشريف يحكي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وحواره مع المجتمع المسلم طوال فترة دعوته، وقد لقي الكثير من الناس، وشاهد الكثير من الأحداث، وخاطبه ربه في كثير من الأحيان من خلال الوحي، أو في الأحاديث القدسية، ، فاقتضى كل ذلك أن تتنوع طوائف المنادين له ﷺ ، وأن يتنوع لفظ المنادى كذلك، تبعاً لاختلاف شخص المنادي أو طبعه أو دينه أو سياق خطابه والغرض منه.

أما الكنى فقد نودى النبي ﷺ بأكثر من كنية ، نحو (يا أبا القاسم) و(يا أبا إبراهيم) و(يا ابن عبد الله) و(يا ابن عبد المطلب) و(يا ابن أخي) وهو نداء جارٍ على عادة العرب من التخاطب بالكنى دون الأسماء الصريحة[١]، وفيه تقريب وتلطف، يرتبط بالسياق ارتباطاً وثيقاً.

أما نداء الصفة واللقب فقد جاء نداؤه ﷺ بصفتي النبوة والرسالة تأدباً معه وتعظيماً له، وهو أيضاً تكريم للنبي ﷺ وتشريف له يرتبط

---

(١) ينظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ٢٢/٦ الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

بمقام الكلام وسياقه ارتباطاً وثيقاً.[١]

وكان نداؤه ﷺ في الحديث النبوي بصفة الرسالة هو الأكثر وروداً من ندائه بصفة النبوة، وإن اشتركاً في الكثرة .

ولعل كثرة الخطاب بالرسالة؛ لأن الإخبار عنهﷺ بوصفه رسولاً كان أسبق منه بوصفه نبياً ؛ ذلك أن من الكلمات الأولى التي سمعها من الملك كلمة (رسول) كما جاء في حديث " بدء الوحي " :أن جبريل كان يجيئه فيقول له : (يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك). [٢]
زد على ذلك أن كلمة (رسول) أدل على أن صاحبها مرسل من قبل الله من كلمة نبي؛ ولذلك عرف العلماء الرسول بأنه : " إنسان حر ذكر من بني آدم أوحى الله إليه بشرع وأمره بتكليفه" [٣] ولهذا ترى هذه الكلمة هي المستعملة في رسائل الرسول إلى الملوك والقياصرة ، كذلك أول ما جمع رسول الله قومه كان يقول لهم : إني رسول الله إليكم .

---

(١) نداء النبي ﷺ بكنيته أو لقبه في الحديث النبوي الشريف، بحث مستقل يحتاج إلى إفراده بدراسة خاصة ، أرجو أن يعين الله تعالى عليها في قادم الأيام.

(٢) صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) ٢٥٦١/٦ تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، ط الثالثة ، ١٤٠٧ه-١٩٨٧م.

(٣) مشارق أنوار العقول للإمام عبد الله حميد السالمى ـــ ٨٦/١ تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة ــ مكتبة الاستقامة ــ مسقط.

كذلك كان رسول الله ﷺ" لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله" [١] كما أنه مبشر بأنه رسول في الكتب السابقة قال تعالى على لسان عيسى بن مريم عليه السلام :(وَمُبَشّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) الصف٦.

والناظر إلى نداءات النبي ﷺ باسمه العلم (يا محمد) في الحديث النبوي الشريف من صحيح البخاري يجد أنها وردت في السياقات الآتية:

أولاً: أحاديث وردت في مقامات علوية.

ثانياً: أحاديث وردت على ألسنة بعض الأعراب.

ثالثاً: أحاديث وردت على ألسنة غير المسلمين(الكفار أو اليهود).

---

(١) المستدرك على الصحيحين .الحاكم النيسابوري٤/٧٩ تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط الأولى ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

المبحث الأول

نداء النبي ﷺ بالاسم العلم في مقامات علوية

يقصد بالمقامات العلوية هنا ما ورد من الأحاديث في سياق حوار إلهي مع رسوله ﷺ أو حوار ملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء، أو حكاية حدث من أحداث الآخرة، وقد وجدت خمسة أحاديث في صحيح البخاري تناولت هذه الحوارات ، ورد فيها نداء الاسم للدلالة على شرفه وتعينه دون سواه في النداء، وأن المقام اقتضاه دون سواه لأنه مما يحسن فيه الاسم دون اللقب أو الكنية، وتتفق هذه الأحاديث جميعاً في ورود نداء النبي ﷺ فيها بصيغة (يا محمد) ، وفي أن النداء في سياق علوي غير أرضي يدور حول أمور غيبية أخبر النبي الصادق عنها بأنها وقعت أو ستقع، والمؤمنون مصدقون لها، مؤمنون بما جاء فيها، لكنها تختلف فيما بينها من حيث مسلك القرب في النداء، ومن حيث تنوع المنادين، فتقريب المولى عز وجل للنبيﷺ لأن المقام مقام التشفع المقتضي مزيد الكرامة في الخطاب، ولأنه ربه الذي ناداه بأنواع النداء: الاسم واللقب ، تقريباً أو تكريماً حسب ما اقتضاه سياق الخطاب، وقد وقع ذلك في حديث الشفاعة، وحديث الإسراء والمعراج، أما الأنبياء فهو تقريب الإخوة المتساوين في الفضل كما في حديث المعراج، أما الملائكة فقد ناداه جبريل بذلك في حديث بدء الوحي، وملك الجبال في حديث فتور الوحي لبث الطمأنينة في قلبه بهذا النداء، وتأنيسه بأنه رسول الله حقاً ، وجاء نداء بعض عصاة المسلمين كما في حديث إثم مانعي الزكاة يوم القيامة ؛ لأنهم يطلبون شفاعة النبيﷺ لهم، والناس يوم القيامة يتنادون بأسمائهم لزوال علائق الدنيا وأسبابها، فلا يبقى من ألقابها شيء، فلكل نداء مقام، وطريقة خطاب تختلف من حديث لآخر.

١ـــــ حديث الشفاعة: ورد عن أبي هريرة ـــــ رضـــي الله عنـــه ـــــ أنه قال: "كنا مع النبي ﷺ في دعوة فرفع إليه الـــذراع وكانـــت تعجبه، فنهس منها نهسة، وقال: أنا سيد القوم يوم القيامة ، هل تـــدرون بم؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصـــرهم النـــاظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم فيأتونه .... فيقول: ربي غضـــب غضـــباً لـــم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي ، نفسي، اذهبوا إلى غيري... فيأتوني فأسجد تحت العرش، فيقال: يا محمد ، ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه " (١).

الحديث هنا في الشفاعة العامة للنبيﷺ في الخلق جميعاً بـــدليل أن البشر يأتون آدم عليه السلام أول ما يأتون ، ثم يأتون نوحاً وبقية الأنبيـــاء كما في روايات أخرى، وجميعهم يستقيل من هذه الشـــفاعة معتـــذرين، قائلين : نفسي نفسي، أما النبيﷺ فيقول: أنا لها ، أنا لها، إنـــه موقـــف رهيب من أحداث اليوم الآخر، يضطلع النبي ﷺ فيه بمهمـــة عظيمـــة، وهي الشفاعة للخلق جميعاً وأمته منهم.

والنداء هنا مندرج تحت هذا المعنى ونابع منه ؛ فـــإن خطـــاب الاسم هو الأليق بمقام تحمل هذه الشفاعة والقيام بها ، فقد جاء النداء هنا من الله تعالى بعد مجيء البشر للنبي ﷺ يدعونه للقيام بهـــذه المهمـــة ، منادين له باسمه (يا محمد) في إحدى روايات الحـــديث حيـــث أمـــرهم عيسى عليه السلام أن يذهبوا إلى النبي عليه السلام : (فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يـــا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبـــك

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٢١٥.

وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟)[١] .

و انظر إلى قوله: (فيأتون محمداً فيقولون يا محمد) وما فيه من إشاعة الاسم الشريف في هذا المقام الذي يرتبط فيه اسمه ﷺ بالغرض المقصود، وهذا من تناغي الأسلوب و تناغمه ، فأبو هريرة يقول: (فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد) وهو يكرر الاسم في الحكاية، يريد بذلك التبرك بالاسم، والتلذذ بنطقه كلما تكرر، وللعلم مدخل كبير في تحقيق ذلك في الكلام، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قال رسول اللهﷺ إني لأعرف غضبك ورضاك قالت: قلت وكيف تعرف ذاك يا رسول الله؟ قال إنك إذا كنت راضية قلت: بلى ورب محمد ، وإذا كنت ساخطة قلت: لا ورب إبراهيم ، قالت: قلت أجل لست أهاجر إلا اسمك).[٢]

فللاسم مدخل كبير في الدلالة على الرضا والقرب والتلذذ بتكراره وترديده في الكلام ، وعليه جاء قسم عائشة باسمهﷺ حين رضاها ، وقسمها بغير اسمه حين غضبها.

والنص على الاسم العلم (محمد) في النداء هنا أيضاً جارٍ على ما يقتضيه مقام الكلام من تمييز المسمى وإيضاحه باسمه العلم في هذا الموقف الأخروي، وجاء الخطاب الإلهي للنبي ﷺ باسمه بعد ذلك ليكون تمييزاً له، وإيضاحاً للمقصود من أول الأمر، فالنبي ﷺ هو المقصود من بين بقية الأنبياء الذين انتدبوه من بينهم ليشفع للناس أمام الله تعالى في الآخرة، وقد غضب الجليل في هذا اليوم غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وهذا هو الغرض الأولي للنداء هنا: التمييز

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٧٤٥.

(٢) السابق ٤/١٧٤٥.

والإيضاح للمسمى باسمه المعلوم؛ فإن هذا النداء متعين هنا؛ لأن النبي ﷺ وسط جميع الأنبياء وهو منهم، فكان هذا النداء تمييزاً له أكمل تمييز لئلا يلتبس بغيره.

و جاء النداء الإلهي هنا ملائماً لسياق الكلام ونظمه من جوانب متعددة، فإن هذا الحديث معروف باسم (حديث الشفاعة) في كتب العلم والحديث [١] ومقام الشفاعة مقام عظيم ودرجة عالية ؛ لذلك اختيرت أداة النداء (يا) دون سواها ، وهو على خلاف الأصل ؛ لأنها موضوعة لنداء البعيد، وجيء بها هنا لتدل على بعد منزلة المنادى وعلو درجته وتعظيمه.

ونادي المولى عز وجل نبيه ﷺ باسمه ليدل على تقريبه وتكريمه؛ لأن المقام مقام التشفع المقتضي مزيد الكرامة في الخطاب، وذكره باسمه لأنه كلام الله إليه مباشرة يوم القيامة، وجملة النداء فيها تخصيص وتكريم وتشريف للنبي ﷺ دون بقية الأنبياء؛ إذ فيها : (ارفع رأسك، اشفع تشفع، وسل تعطه)، وهي جمل وأوامر متعاقبة من الله تعالى تدل على التكريم بقبول شفاعة النبي ﷺ ورفع درجته وإجابة سؤاله.

ويتناسب هذا التكريم مع ما ابتدأ به النبي ﷺ شفاعته للخلق، حيث ضمن أمام الأنبياء أنه قائم بهذا العمل قائلاً : (فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليَّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي) [٢] ومن المعلوم أن أقرب ما

---

(١) صحيح البخاري ٢٧٢٧/٦، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي .المباركفوري ٥/ ١٣٦ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) صحيح البخاري ٢٧٢٧/٦.

يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقد سجد هنا ، وكذلك فإن النبي ﷺ قدم لشفاعته بما يليق بجلال المولى عز وجل، حيث حمده بمحامد فتح الله عليه بها، فازداد بذلك قرباً من الله، وكأن نداءه ﷺ حينئذٍ ينظر فيه إلى المعنى الوصفي دون المعنى العلمي الاسمي، فإن اسمه (محمداً) يدل على المبالغة في الحمد من التفعيل، أو الذي تكاملت فيه الخصال المحمودة[١]، قال القاضي عياض : " وتسميته محمداً وقعت في القرآن العظيم، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربه فيشفعه فيحمده الناس"[٢] .

وهذا الحديث يختصر المحامد التي حمد النبي ﷺ ربه بها، ويقتصر على ذكر السجود بينما نجد في بقية روايات الحديث أن النبي ﷺ حمد ربه بمحامد متعددة بعد أن وقع أو خرَّ ساجداً لله تعالى تحت العرش، ففي رواية أنه ﷺ قال : " ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي " [٣]وفي رواية أخرى : " فيأتونني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، و أخِرُّ له ساجداً " . [٤]

لذلك فإن الاسم (محمداً) دون سواه من أسمائه أو صفاته أو كناه هو الأنسب هنا؛ لأن المقام مقام الحمد والقرب كما هو واضح ؛فضلاً عمَّا في خطابه ﷺ باسمه العلم من الإيناس والتلطف في مقام الفزع يوم

---

(١) تحفة الأحوذي ١٠٥/٨ .
(٢) فتح الباري ٥٥٥/٦.
(٣) صحيح البخاري ١٧٤٥/٥.
(٤) السابق ٢٧٢٧/٦.

القيامة ما لا يكون إذا خوطب بغير ذلك، فإن صفتي النبـــوة والرســـالة مثلاً لا تناسب هذا اليوم الذي انقطع فيه البلاغ ولم يبق إلا الحساب، فلا محل للخطاب بـــ(يا رسول الله) أو (يا نبي الله) وهو ما جاء في الحديث النبوي في مواطن أخرى في سياقات دنيوية مختلفة.

٢ـــــ حديث بدء الوحي: روى البخاري بسنده عن ابن شهاب عـــن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت : " ثم لم ينشِب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمـــد إنـــك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليـــه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك" (١).

جاء النداء هنا للنبي ﷺ باسمه العلم (يا محمد) من جبريل عليه السلام ولا شك أن كراهة النداء للنبي ﷺ باسمه كانت في حق الناس، لا فـــي حق الملائكة، فلا إشكال في نداء جبريل بذلك " وكَرَاهَة النِّدَاء بِاسْمِهِ ﷺ فِي حَقّ النَّاس لَا فِي حَقّ الْمَلَائِكَة فَلَا إِشْكَال".(٢)

والمقام داعٍ إلى ذلك النداء ومرجِّح له؛ فإن النبي ﷺ بعد فتـــور الوحي حزن حزناً شديداً دفعه إلى التردي من رؤوس شواهق الجبـــال،

---

(١) صحيح البخاري ٦/٢٥٦١.

(٢) حاشية السندي على النسائي لنور الدين السندي ٨/٩٨، تحقيق:عبدالفتاح أبوغدة ، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية ، ١٤٠٦هـ ـــ ١٩٨٦م.

فكلما أوفى بذروة جبل ليلقي منها بنفسه تبدى له جبريل، فناداه هذا النداء، وكرره ، فالمقام مقام الحزن ، وضيق النفس، والقلق من انقطاع الوحي أو فتوره ، فكان خطاب جبريل حينئذٍ لبيان حقيقة الأمر، وطمأنة النبي ﷺ حتى يسكن جأشه وتقرَّ نفسه بأنه الرسول الخاتم، وأن فتور الوحي كان لأسباب أخرى ليس منها الشك في نبوته حتى يحزن ويضطرب، ولذلك قال له : (يا محمد) ليتعين باسمه و(إنك رسول الله حقاً) ليطمئن باله وتهدأ نفسه ويسكن جأشه، وكأن نداء الاسم هنا هو الذي يصنع هذا الإحساس الجديد و يؤكده تماماً ، فأنت رسول يأتيك الوحي وتسمع كلام السماء، وهذا ما عبرت عنه السيدة عائشة بقولها: (فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع) وهو تعبير دقيق يصور الأثر المؤقت لخطاب جبريل على النبيﷺ وهو أثر عظيم ، إلا أن استمرار انقطاع الوحي يدفعه إلى الرجوع إلى نفس الحزن(فيرجع) ، وكأنه صراع داخلي لم يطلع عليه أحد إلا المقربات من زوجاته ، يصور فرحة النبيﷺ بعودة الوحي ، وحزنه حين انقطاعه.

وهذا النص جزء من حديث بدء الوحي على لسان السيدة عائشة وهي تروي قصة بدء نزول الوحي على رسول اللهﷺ ، ولا شك أن في كلامها من سمت الكلام ما يدل على دقة التعبير وحسن الصياغة، وقد ذكر العيني أن هذا الحديث من مراسيل الصحابة؛ فإن عائشة رضي الله عنها لم تدرك هذه القضية، فتكون سمعتها من النبيﷺ أو من الصحابة، وقال ابن الصلاح وغيره في مثل هذا الحديث: هو في حكم الموصول المسند [١] فما في هذا الحديث كلام السيدة عائشة رضي الله عنها إلا ما أسندته هي إلى غيرها.

---

(١) عمدة القاري١/٤٧ .

والسمت الذي أراه هنا في هذا الحديث هو تخليص الكلام إلى الغرض، وانصبابه إليه، وتجريده له [١]، وهو ما ظهر من عبارتها عن نداء جبريل للنبيﷺ باسمه ، وعبارتها عن حال النبي ﷺ حين انقطاع الوحي وحين رجوعه ، وتأمل معي تسلسل هذا النص الشريف وتتابعه من أوله، وتدرجه على مدرجة الزمن والحدث حتى نهايته، فإن وفاة ورقة كانت حدثاً سريعا وخاطفاً عقب لقاء النبي ﷺ به وإخباره خبر ما رآه وإجابة ورقة له بأنه وحي، وأنها النبوة ثم فتور الوحي، وهذا ما اختصره قول السيدة عائشة: (ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ) وفي لسان العرب: "ونَشِبَ بعضُهم في بعض أَي دَخَلَ وتَعَلَّقَ يقال: نَشِبَ في الشيءِ إِذا وَقَعَ فيما لا مَخْلَص له منه ولم يَنْشَبْ أَنْ فَعَل كذا، أَي لم يَلْبَثْ وحقيقتُه لم يَتَعَلَّقْ بشيءٍ غيره ولا اشتغل بسواه"[٢] فقد بقي ورقة مدة قصيرة بعد بعثة النبيﷺ حتى مات ، وهو ما عبرت عنه كلمة: (ثم لم ينشِب) وقد اختصرت هذه العبارة كلاماً كثيراً حتى كان نداء جبريل للنبي ﷺ هذا النداء الذي يأتي بين يدي الأمر للدلالة على شدة عناية المتكلم بمضمونه [٣] ، فناداه جبريل بأداة النداء (يا) للدلالة على علو مقامه ، وناداه باسمه ، وأكد له أنه رسول الله حقاً، والتوكيد يتلاءم مع المعنى ويؤكد الغرض المقصود، فقد نُزِّل النبيﷺ منزلة المنكر، وقد كان النبي ﷺ في غنىً عن الخبر المؤكد؛ لأنه كان يعرفه من ورقة قبل ذلك، لكن لما ظهرت عليه أمارات الحزن لانقطاع الوحي أراد جبريل أن ينهاه عن ذلك، وجاء التأكيد هنا لمزيد

---

(١) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخاري د. محمد أبو موسى ص ٦٤ طبع مكتبة وهبة ط/ أولى ٢٠٠١م .

(٢) لسان العرب ١/٧٥٥.

(٣) الأساليب الإنشائية د / صباح دراز ص ٢٧٦.

العناية بالأمر.

أما نداء الاسم فهو الأليق بهذا الموطن ؛ لأن هذا المقام من مواطن وجوب ذكره ﷺ باسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة [١] كما نطق بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ﴾ آل عمران١٤٤وقوله تعالى: ﴿مَا كان مُحَمَّدٌ أبا أَحَدٍ من رجالِكم ولكن رَسُولَ الله﴾ الأحزاب٤٠ وقوله:﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الفتح٢٩ ، وتلك مقامات يقصد منها تعليم الناس بأن صاحب ذلك الاسم هو رسول الله حقاً، وتلقين لهم بأن يسموه بذلك ويدعوه به، فإن علم أسمائه من الإيمان لئلا يلتبس بغيره، ولذلك قال رسول الله ﷺ : (لي خمسة أسماء...) تعليماً للأمة. [٢]

وفي ضوء ذلك يمكن قراءة نداء جبريل هنا على أنه سياق ذكر النبيﷺ باسمه متبوعاً بصفة الرسالة، فإن الاسم ووصف الرسالة يكمل بعضهما بعضاً في أداء معنى الطمأنينة والإيناس المقصودين في السياق، بدليل تكرار مجيء جبريل ليقول هذا الكلام أكثر من مرة مبالغة في الأمر، فكلما رجع النبيﷺ للحزن أرسل الله إليه جبريل لينادي ويكرر له هذا الكلام تأكيداً للأمر، وتأنيساً له ﷺ من انقطاع الوحي ، وشدة إيذاء القوم له ، وقولهم له: إن ربك قد تركك وهجرك ، وغير ذلك من عبارات التهكم والاستهزاء والشماتة، وهكذا يجيء نداء جبريل للنبيﷺ باسمه في هذا المقام واقعاً موقعه ، مؤدياً لهذه الطمأنينة والسكينة التي أراد جبريل أن ينقلها إليه.

---

(١) روح المعانى ٢١٧/٢١ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٥٠/٢١ طبع الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٤م.

٣ـــ حديث فتور الوحي: روى البخاري بسنده عن ابن شـــهاب عـــن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قال للنبي ﷺ : " هـــل أتى عليك يوم أشد من أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبـــد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلـــم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتنـــي فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني ، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شـــئت فيـــه، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شـــئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا "[١] .

ورد هنا خطاب النبي ﷺ باسمه العلم من الملائكة مرة أخرى في قـــول ملك الجبال: (يا محمد، ذلك فيما شئت ، إن شـــئت أن أطبـــق علـــيهم الأخشبين) في مقام التأنيس والتلطف وتسكين النفس ، ولا كراهة فـــي ندائه ﷺ من الملائكة باسمه العلم كما سبق، فلا إشكال في ذلك .

وهذا الحديث من رواية السيدة عائشة كسابقه، وهو أشـــبه مـــا يكون بحكاية ماضٍ، وقصة تذكار لما لقيه النبي ﷺ في سبيل الدعوة من أذي، وبيان استهانته بالشدائد في سبيل الله ، وهو حينئذٍ أرحـــم النـــاس بأمته، وأحلمهم على قومه، وقد صورت السيدة عائشة ذلك فيه أصـــدق تصوير، ونلتقي فيه مرة أخرى بنفس نداء جبريل (يا محمد) وقد تـــآزر النداء المباشر له باسمهﷺ مع بقية السياق في أداء ذلك المعنى، كما كان في حديث بدء الوحي ثم فتوره وانقطاعه، فإن مجيء جبريل ليناديه مرة

---

(١) صحيح البخاري٣/١١٨٠.

أخرى لكي يتعين باسمه، ويخبره بعلم الله بما حدث معه ، وأن الله ناصره ، وأنه قد وضع ملك الجبال تحت تصرفه ليأمره بما شاء فتهدأ بذلك نفسه ، وقد وقع النداء هنا من ملك الجبال للنبيﷺ باسمه الشريف (محمد) ليشعره بأن هذا الذي حدث لا يزعزع يقينك بأنك رسول الله ومبلغ وحيه ولو أردت إهلاكهم لفعلت، وظهور الملك هنا مشابه لظهوره في قصة بدء الوحي بغرض التأنيس والتسلية ، فيظهر الملك من خلال سحابة في السماء فينادينه ويخبره بعلم الله بما حدث له من قومه، وأن الله قد بعث له ملك الجبال ليأمره بما يشاء، ، فقال له ملك الجبال : (لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين) ، فحذف جواب الشرط لتعينه ، وخيَّر رسول الله في اتخاذ قرار الإهلاك والإبادة لكن الرسول ﷺ الرحمة المهداة ، الرءوف الرحيم يقول: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) إنها قمة الإيثار والصفح والعفو والرفق بالأمة كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧.

وهذه الواقعة التي حكاها رسول الله ﷺ كانت في " شوال في سنة عشر من المبعث، وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة رضي الله تعالى عنها " [١] وقد اجتمعت عليه الهموم والأحزان بعد موتهما من تكذيب قومه وإيذائهم له فتوجه إلى أهل الطائف رجاء أن يؤووه فلم يستجيبوا، وردوا عليه أقبح رد ، وحينئذٍ لجأ إلى موضع قرن الثعالب بقرب مكة، وهو ميقات أهل نجد حالياً [٢] يملؤه الحزن والغضب وقد أغلقت دونه السبل لهداية قومه، ، وقد قرنت السيدة عائشة شدة هذا اليوم

---

(١) عمدة القاري ١٤٢/١٥.

(٢) السابق ١٤٢/١٥ .

على رسول اللهﷺ بشدة يوم أحد ، فقد قال النبيﷺ: (وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل) فهو يوم أشد من أحد، والنبيﷺ يقول إنه عرض نفسه على القوم ، فلم يجيبوه ، فخرج مهموماً ، والهم أشد من الحزن ؛ لذا التجأ إلى ربه ناظراً إلى السماء ، ففيها مبتغاه ، فيظهر له جبريل عليه السلام فيناديه ، ويقول له ملك الجبال الذي سخر الله له الجبال، وجعل أمرها بيده: (يا محمد ذلك فيما شئت، لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين) ، فيقول النبي ﷺ : (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)، إنه مطمئن بنور الله، مصدق بوحيه وبملائكته وقد جاءوا ليبثوا الطمأنينة في قلبه فيجعلون الأمر بيده واختياره فلا يكون منه إلا العفو.

إنه سياق مشابه لسياق الحديث السابق ، يجيء النداء فيه في موضعه ، ليشارك في أداء غرض الحديث ، ويتآزر مع بقية النظم في أداء معنى الطمأنينة.

٤ـــ حديث الإسراء والمعراج

وفي حديث الإسراء والمعراج نلتقي بنفس النداء بالاسم العلم (محمد) وفيه أن النبي ﷺ علا في السماوات السبع، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم الراوي، يقول: " فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله " [١] وكلما صعد في سماء ناداه من

---

(١) صحيح البخاري ٦/٢٧٣٠.

فيها : من معك؟ فيقول : معي محمد، فيذكره جبريل باسمه " وفيه دليل على أن الاسم أولى وأوضح في التوضيح من الكنية ".[١]

وقد روي هذا الحديث في البخاري " عن شريك بن عبد الله أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول"[٢] فالحديث من رواية أنس، وكلام أنس فيه صقل وتشويق، فهو يحكي لك قصة غريبة تروى، ويتناقلها الناس لما في أحداثها من الأمر الخارق ، وهو يشبع المعاني، ويدققها، ويحكي التفاصيل في تشويق وحسن بيان، فهي حكاية تحكى، يلتزم الحاكي فيها بأصول السرد من غير أن يقول إنه واحد ممن عاشوا هذا الحدث، ونجد الاسم (محمد) يتكرر في هذا الحديث ، نظراً لمحوريته في حكاية أحداثه، فعند حكاية لقاء النبي ﷺ بموسى في رحلة المعراج ذهاباً وإياباً نجده يقول: "فقال موسى: ربِّ لم أظن أن ترفع عليَّ أحداً، ثم علا به فوق ذاك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى، فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إليَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار فقال (وهو مكانه) : يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه ، فلم يزل يردده موسى إلى ربه، حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال:

---

(١) عمدة القاري ٢٥/١٧ ، ٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٢٧٣٠/٦ .

يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: يا ربِّ إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفِّف عنا، فقال الجبار: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لديَّ ، كما فرضت عليك في أم الكتاب، قال: فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أمِّ الكتاب"(١).

وإطار الحكاية هنا داعٍ لتردد النداء في جنبات هذا النص الشريف الذي يحكيه أنس بن مالك – رضي الله عنه – وكل نداء يجيء مناسباً لمقتضيات الحوار القصصي يضعه المحاور في صدر كلامه لينبِّه المخاطب إلى ما يريد، ويخضع اختيار اسم المنادى أو صفته في الحوار إلى خصوصيات في نظم الكلام، وطبيعة جملة النداء المحكية، والسياق هنا سياق الاسم دون سواه ، فهو أولى في التوضيح من غيره.

ومن النداءات الواردة هنا قول موسى للنبي ﷺ : (يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إليَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة) وهو خطاب المساوي ، فلا غضاضة فيه، فالجميع أنبياء الله ورسله، فلا محل للتخاطب بالألقاب والكنى، بل ينادي كل منهم أخاه باسمه العلم، وهو خطاب الألفة والقرب ، وفي الاسم هنا لذة ومتعة ليست في اللقب أو الكنية مثلاً، فقد كان صعود رسول اللهﷺ وهو حيٌّ يقظةً إلى السماء في هذه الرحلة المباركة حدثاً سعيداً لإخوانه من الأنبياء ، فقد استقبلوه بالبشر والفرح ، ورددوا اسمه على ألسنتهم تبركاً وتلذذاً .

والظاهر أن النداء قد تكرر من موسى عليه السلام بهذه الصيغة في كل

---

(١) صحيح البخاري ٦/٢٧٣٠ .

مرة ردده فيها إلى ربه، ويدل على ذلك ما حكاه أنس: (ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات) وهذه الجملة توجز ما حدث بين موسىعليه السلام ونبينا محمد ﷺ في كل مرة راجع فيها ربه في فرض الصلوات الخمس، وفي كل مرة يتكرر هذا النداء وتلك الجمل، وهو ما ورد في روايات أخرى للحديث(١).

وقد احتبسه موسى عند الخمس فقال: (يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه) ونداء الاسم هنا يتناسب مع الحوار الدائر بين نبيين عظيمين، كلاهما اصطفاه ربه وكلمه في أمر عظيم، والأمر العظيم هنا فرض الصلوات الخمس، وهو حدث عظيم في حياة النبي ﷺ ودعوته إلى الله وفي حياة المسلمين جميعاً؛ لأنه حد فاصل بين عهدين متقابلين، قبل فرض الصلاة وبعده، فكان تقديم النداء بين يديْ هذا الأمر العظيم الذي يتحاوران فيه أمراً لازماً .

ونادى موسى عليه السلام نبينا محمداً باسمه ليتميز من بين بقية الأنبياء ويتضح باسمه من أول الأمر، وليضمن إقبال النبي ﷺ واهتمامه بما يلقى عليه من أخيه موسى، والاسم أليق بالمقام هنا لما فيه من إزالة علائق الدنيا والبعد عن أوصافها وألقابها وكناها في حضرة الذات العلية في الأفق الأعلى.

وقد نادى الله تعالى نبيه بالاسم(محمد) بعد ذلك في قوله : (فقال الجبار: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لديَّ ، كما فرضت عليك في أم الكتاب، قال: فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أمِّ الكتاب) وجاءت حكاية النداء في سياق الرد على النبيﷺ

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٤١٠.

في قوله: (يا رب خفِّف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا) وقد كان ذلك بعد جعل الصلوات خمساً فقط ، وتقديم النبيﷺ للنداء بين يدي الأمر هنا لمزيد التضرع والخشوع في حضرة رب العالمين بعد هذا التخفيف الزائد ؛ لذلك قال النبيﷺ: (يا ربِّ) بأداة النداء (يا) الدالة على البعد وعظمة المنزلة، و(ربّ) الدالة على الإحسان والإنعام، وحذف المضاف إليه اختصاراً ، وللدلالة على عموم ربوبيته للخلق أجمعين، وأجابه الله إحساناً به وتلطفاً معه (يا محمد) بنداء القرب وقال: (لبيك وسعديك) وزاده كل حسنة بعشر أمثالها.

وهكذا تجيء نداءات النبيﷺ في الحديث مؤدية للمقصود، ملبية لمراد المتكلم ، موزعة في ثناياه ، خاضعة لمقتضيات الأسلوب و السياق.

٥ـــــ **حديث مانع الزكاة:** جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله ﷺ : " تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يُعطِ فيها حقها، تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم تُعطَ فيها حقها ، تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها، وقال: ومن حقها أن تُحلَب على الماء ، قال: ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يُعَارٌ: فيقول : يا محمد فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغتُ، ولا يأتي ببعير يحمله على رقبته له رُغَاء فيقول : يا محمد. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلغت" . (١)

يأتي نداء النبي ﷺ باسمه هنا من عصاة المسلمين يوم القيامة وهو خبر غيبي سيقع حكاه النبيﷺ من أحداث اليوم الآخر، يدور حول

---

(١) صحيح البخاري ٢/٥٠٨.

جريمة الغلول في الغنيمة وإثم مانع الزكاة وعقوبته في الآخرة ، فإن الله تعالى يبعث الحيوانات التي منعت زكاتها ليعذب بها مانعها، والظاهر أنها تبعث كلها، ليكون العذاب بها أكثر وأشد لأن المال الذي لم تخرج زكاته لم يتطهر فيعاد على أكمل حال ليتحسر قلب مانع الزكاة فيزداد ألماً [١] ، وقد جمع هذا الحديث بين الغلول في الغنيمة وعقوبتها، وإثم مانع الزكاة في الغنم والإبل لاشتراكهما في نوع العذاب في الآخرة.

والناس يوم القيامة يتنادون بأسمائهم لزوال علائق الدنيا وأسبابها، فلا يبقى من ألقابها شيء، كما أن كراهة ندائه ﷺ باسمه تختص بالأمة في الدنيا، أما هذا الخبر فهو من أحداث اليوم الآخر، فلا محل للكراهة.

إننا أمام نداء يحكيه النبي ﷺ بذاته ، لا أثر لسَمْت بيان أبي هريرة فيه، والنبي ﷺ ناقل له من لسان مانع الزكاة في الآخرة، مصورٌ لما في نفس قائله من انفعالات وأحاسيس، وذلك من بلاغة المتكلم وحسن بيانه ،فلا يمكن أن يكون هذا النداء غير مقصود بلفظه هنا؛ لأن النبي ﷺ هو الذي يحكيه، مصوراً حقيقة ما يحدث، وبألفاظه الحقيقية كما أعلمه ربه عز وجل.

والمتأمل في بناء الأسلوب في الحديث يجده مبنياً من أوله على وجوب أداء الحقوق كاملة دون نقصان في الدنيا؛ لأن ذلك مما يورث السلامة من العذاب في الآخرة ، فيقول الرسول ﷺ : (تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت) في أول الحديث فينبه إلى أن هذا المشهد مما يجب أن يستحضره المسلم في الدنيا بدلالة قوله : (تأتي) ، وهذه

---

(١) فتح الباري ٣/٢٦٩.

الأنعام التي منعت زكاتها تأتي كاملة في الآخرة ليعذب بها مانعها، وهذا حقها الذي فرط فيه، والحقوق نوعان: منها ما هو فرض عين كالزكاة، ومنها غير ذلك كالحلب على الماء الذي هو من مكارم الأخلاق والكل مأمور بإتيانه.

وبعد أن قرر النبي ﷺ وجوب أداء الحقوق في أول الحديث يذكر لنا انتفاء شفاعته لهؤلاء العاصين فيقول: (ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار فيقول : يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت) فالناس يجيئون يوم القيامة وقد حمل كل منهم ذنبه فوق ظهره سواء كان شاة أم إبلاً أم غيرهما كما في روايات أخرى. (١)

وقد وقع النفي هنا موقع النهي، إيذاناً بأن المنهي عنه يستبعد وقوعه من المؤمن الطائع، حتى كأنه مما لا يوجد ، ومما لا يصح الإخبار عنه بأنه موجود، والمعنى : لا يأتين أحدكم يوم القيامة وقد اقترف هذا الذنب في الدنيا، ويؤيده رواية النسائي من طريق علي بن عياش عن شعيب: (ألا لا يأتين أحدكم) (٢) وفي ذلك تشديد في النهي ، فلن يقبل منهم يوم القيامة شفاعة من أحد؛ لأن الشفاعة لها شروطها، ومنها رضا الله عن المشفوع له، مصداقاً لقوله تعالى: (وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى) المؤمنون: ٢٨ وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: " أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِﷺ فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَلَمَّا كَلَّمَهُ تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِﷺ فَقَالَ رَسُولُ

---

(١) سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي.النسائي ٢٤/٥ .الناشر : دار المعرفة – بيروت ،الطبعة : الخامسة ١٤٢٠هـ .

(٢) فتح الباري ٢٦٩/٣.

اللَّهِﷺ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ إِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ قَطَعْتُ يَدَهَا" (١)

فللشفاعة شروطها ، وليس هذا موطنها ، فالحقوق يجب أداؤها ، والزكاة أولى الحقوق بالأداء، والحدود حق الله الذي لا يجب التفريط فيه، ولهذا استنكر النبي على أسامة بن زيد شفاعته في حق من الحقوق الواجبة وحد من حدود الله قائلاً: (أتشفع في حد من حدود الله؟) وقام فخطب الناس ، وكان لا يقوم في الناس خطيباً إلا لأمر مهم ، مبيناً للناس سنة من سنن الله الكونية في أسباب زوال الأمم أو بقائها، وهو إقامة العدل، وذكر أن الناس جميعاً متساوون في الحقوق، وأقسم على ما يقول لتأكيده قائلاً: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ قَطَعْتُ يَدَهَا) فذكر ابنته باسمها ونسبها إلى اسمه دون لقبه أو كنيته حتى لا يتميز عن الناس بصفة أو شرف ، والاسم دال على ذلك من غيره ، ولذلك فإن النبي ﷺ يحكي نداءهم مع إجابته عليهم، دون أن يزيد فيهما؛ لأن سياق أداء الحقوق والحكم بما أنزل الله في شأن الزكاة لا يقتضي أن يذكر نفسه بغير الاسم؛ لأنه واحد من الناس، اسمه كأسمائهم، وجزاؤه كجزائهم، وهم يحملون أوزارهم قائلين: (يا محمد) أي أغثني أو اشفع لي، منادين له باسمه، واقتصروا على المنادى، ولم يذكروا جملة النداء لوجود ما يدل عليها وهو جوابه: لا أملك لك شيئاً ، وهذا على حد قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

---

(١) سنن النسائي ٨/٤٤٥.

الممتحنة ٤ وسياق ذكر الجزاء في الآخرة والدعوة إلى أداء الحقوق ، ومقتضى تواضعه ﷺ كل ذلك يتطلب من النبيﷺ ألا يذكر نفسه بكنية أو لقب.

وهذا السياق نظير قوله ﷺ : (فوالله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) [١] وعن عائشة " أنه لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء ٢١٤ قام رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم" [٢] فالسياق هو بيان مساواته للخلق جميعاً في التشريع والأحكام وأداء الحقوق، وذلك مقام التعبير بالأسماء الصريحة مجردة عن الوصف، فالنبيﷺ يذكر نفسه ونساءه بالأسماء الصريحة ، فلا مجال لتعظيم أو وصف زائد ، وهو نفس ما جاء في النداء المحكي عن النبيﷺ هنا من الكافرين ، فلا كرامة لأحد ولا شفاعة لقريب في الحقوق والحدود .

---

(١) سنن النسائي ٨/٤٤٤.

(٢) السابق ٦/٥٨٩.

المبحث الثاني

نداء النبي ﷺ بالاسم العلم في مقام حواره مع الأعراب

نودي النبي ﷺ باسمه العلم من الأعراب، وهم من سكن البادية عرباً كانوا أو عجماً[١]، وهم قوم ذوو بداوة ، وأهل جفاء في الطبع، لم تهذبهم الحضارة، ولم يصقل سلوكهم ذوق المدينة، وإنما هم صورة من فحيح الصحراء، ووهج الشمس الحارقة؛ ولذلك فإن سلوكهم فيه غير قليل من الخشونة المنافية لأصول اللياقة والذوق الإنساني. [٢]

ومن هذا المنطلق نجد أن مخاطبة الأعراب لغيرهم تتصف بالغلظة والجفاء توافقاً مع طباعهم، فنجدهم ينادونه ﷺ باسمه، ويتركون النداء الدال على تشريفه وتكريمه وتوقيره وهو الكنية أو اللقب، والنداء للنبي ﷺ باسمه منهم يختلف عن نداء الله تعالى أو ملائكته أو أنبيائه للنبي ﷺ باسمه في الدلالة والمغزى كما سيتضح.

وقد ورد هذا النداء من الأعراب في حديثين اتفقا في ندائهﷺ بالاسم (محمد) ، وفي كونهما دالين على الجهل والسفه والطيش في خطابه ﷺ ، وفي وضوح ذلك في نظم كل حديث وتركيبه، لكن كلاً منهما يختلف عن الآخر اختلافاً بيناً في مسلك النداء وطريقته :

---

(١) فرق علماء اللغة بين العرب والأعراب باعتبار البيئة، فالعرب جيل من الناس معروف خلاف العجم، والعربي منسوب إلى العرب، أما الأعراب فأهل البدو من العرب، والواحد أعرابي، وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ، فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية فهم عرب. ينظر : لسان العرب ١١٣/٩ مادة (عرب) .

(٢) بلاغة الخطاب في البيان النبوي ٣١٥ د/ أحمد أحمد عطوان رسالة دكتوراه مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

١ـــ من ذلك ما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: " بعث علي رضي الله عنه بذهبية فقسَّمها بين الأربعة، الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي العامري، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نبهان ، وعلقمة بن علاثة، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويَدَعُنا، قال: إنما أتألفهم، فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، محلوق الرأس، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض فلا تأمنونني، فسأل رجل قتله – أحسبه خالد بن الوليد – فمنعه، فلما ولَّى قال: إن من ضِئْضِئ هذا أو في عقب هذا قوماً يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرَّمِيَّة، يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد" (١).

جاء هذا النداء متساوقاً مع طبيعة الأعرابي الذي جاء على هذه الهيئة المنكرة الجافة، وهو يجهل مقام الرسول الأعظم، " وقد كان الأعراب الجفاة يأتون النبي ﷺ وهو جالس مع أصحابه فيقولون : أيكم محمد بن عبد المطلب؟ ولا يذكرون ما شرفه الله به من النبوة المعصومة والرسالة المؤيدة، فلا ينكر ذلك عليهم؛ لما خصه الله به من الخلق العظيم، وجبله عليه من الطبع الشريف" (٢) ويصنعون ذلك دون حرج ، وينادونهﷺ دون توقير، ويأتون من الأفعال ما يدفع بعض

---

(١) صحيح البخاري ٢٧٠٢/٦.

(٢) شرح البخاري لابن بطال ٤٢٠/١٧ تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم ، طبع دار الرشد بالرياض عام ١٤٢٠هـ.

الصحابة إلى محاولة الفتك بهم في حين يلقون من الرسول ﷺ كل ترحيب وحلم، ويجيبهم ويرأف بهم، وكانوا بذلك سبباً في بيان كثير من الأحكام الفقهية.

يقول تعالى : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٩٧ أي : إن شأنهم الجهل خاصة بالأحكام؛ لذلك نبه العلماء على أن لهم أحكاماً مخصوصة، فهم – مثلاً – لم يتعبدوا بالهجرة التي يحرم بها رجوع المهاجر إلى وطنه، كما فرض على أهل مكة البقاء مع النبي ﷺ بالمدينة ونصرته؛ وذلك لما كان عليه الأعراب من الضعف، حتى إن أحدهم ليقول إن حصل له مرض في المدينة: أقلني بيعتك، ونحو ذلك(١).

وتعليل صنيع الأعرابي وندائه هنا من وجوه : الأول: أنه باقٍ على جفاء الجاهلية، الثاني: لعله كان قبل النهي عن مخاطبته عليه السلام بذلك، الثالث: لعله لم يبلغه النهي، وعلى الرغم من ذلك فإن نداء النبي ﷺ باسمه هنا فيه جفاء وغلظة، وسوء أدب، ودلائله من نظم الحديث ما يلي:

أولاً: تلك الهيئة التي جاء عليها الأعرابي، وهي هيئة منكرة دالة على الغضب وسوء الحال، (فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، محلوق الرأس) (٢) فكان منه هذا الإنكار على قسمة الغنائم على هؤلاء الصناديد، دون من هو مثله في سوء الحال والضيق.

ثانياً: تقديم الأمر الصريح للنبي ﷺ بتقوى الله، على النداء بالاسم العلم

---

(١) حاشية السندي على النسائي ٧/ ١٤٣ تحقيق: عبدالفتاح أبوغدة ،طبع: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية ، ١٤٠٦ه ـــ ١٩٨٦م.

(٢) غائر العينين: ذَاهِبهمَا إِلَى الدَّاخِل ، ناتيء: مُرْتَفِع الْجَبِين.

من أمارات الإنكار وسوء الأدب.

ثالثاً: صَدَّرَ الأعرابي كلامه بما يدل على الجفوة والغلظة قائلاً لأشرف الخلق : (اتق الله يا محمد) ولعله لم يسمع كلمة النبي ﷺ : (إنما أتألفهم) أو سمعها ولم يفهمها ، فأنكر فعل النبي ﷺ داعياً له أن يتقي الله في القسمة منادياً للنبي ﷺ باسمه في غير احترام أو توقير، فلم يناده بما يدل على تكريمه وتعظيمه، بل قال: يا محمد ، بعد سماع مقولته: (إنما أتألفهم) وكان هذا إنكاراً منه على إنكار، ومواجهةً بالخطاب، وقد وردت كلمة الأعرابي بأكثر من رواية جميعها يحتوي على نداء النبي ﷺ باسمه (محمد) وكلها دال على سوء الأدب المقتضي للغضب والإنكار من النبيﷺ ، ففي رواية عبد الرحمن بن أبي نعيم فقال: (اتق الله يا محمد) وفي حديث عبد الله بن عمر فقال: (اعدل يا محمد) ، وفي لفظ له عند البزار والحاكم فقال: (يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما أراك تعدل) وفي رواية مقسم فقال: (يا محمد قد رأيت الذي صنعت، قال: وكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت) ، وفي حديث أبي بكرة فقال: (يا محمد والله ما تعدل) ، وفي لفظ : (ما أراك عدلت في القسمة) ونحوه في حديث أبي برزة " [(١)] لذلك جاء رد النبي ﷺ غاضباً في سرعة بأسلوب الاستفهام الإنكاري: (من يطع..) و(أيأمنني الله ...) ، ولم يزد على ذلك، فغضبه وإنكاره على هذا الأعرابي لا يتنافى مع مزيد حلمه وعفوه وصفحه عنهم، فقد قيل: إن هذا الرجل من أهل البادية حديث عهد بأمر الله [(٢)]، وأن هذا الخطاب جاء على وجه العتاب

---

(١) فتح الباري ٢٦٣/١٢، ٢٦٤.

(٢) السابق ٢٦٣/١٢،وقد اختلف في اسم الأعرابي فقيل: هو ذو الخويصرة التميمي، وعند أبي داود اسمه نافع ورجحه السهيلي، وقيل: اسمه حرقوص بن زهير كما جزم به ابن سعد ، ينظر:عمدة القاري ٨/١٨ ، وإرشاد الساري ٤٢٢/٦.

للأعرابي[١] لأجل ذلك ، فكان هذا الخطاب منصباً على تعليمه سلوك طريق الأدب وتعظيم رسول الله ﷺ في التعامل معه والظن به؛ لأن من المعلوم أن من آداب الدعوة في معالجة الأخطاء: البدء بالتهدئة وإرجاء الحسم، وهو ما كان من رده على الصحابة أولاً: (إنما أتألفهم)، وقوله للأعرابي ثانياً ، ثم يجئ بعد ذلك التوجيه والنصح والإرشاد، وهو ما جاء في منعهم من الفتك بالأعرابي لما سمعوا كلامه ، وقوله لهم : (إن من ضئضئ هذا ...) بعد ذلك .

وفي هذا الحديث نوعان من الإنكار على النبي ﷺ :

الأول: إنكار صحابته ﷺ من المهاجرين والأنصار.

الثاني: إنكار الأعرابي.

وقد اختلف خطاب النبي ﷺ ورده على كل منهما ، تبعاً لطبيعة كل منكر وطريقة إنكاره، فالصحابة من المهاجرين والأنصار يعرفون للنبي ﷺ قدره، فلم يواجهوه بخطاب، ولم ينادوه باسمه كالأعرابي، وتهامسوا فيما بينهم، وقالوا : (يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا) وكأنه أحزنهم صنيعه ﷺ بما جاءه من الغنائم والأموال في غزوة حنين حتى قالوا هذه المقولة، ولذلك جاء رده ﷺ عليهم بأسلوب فيه إيناس لهم وتلطف ورفق بهم، حيث قال لهم بأسلوب القصر : (إنما أتألفهم) ومن المعلوم أن (إنما) تأتي في المقامات المأنوسة التي لا يواجه فيها المتكلم بإنكار. [٢]

وكان خطابه ﷺ لهم خطاب من يرتقي بهم من حقارة الدنيا إلى

---

(١) فتح الباري ٢٦٣/١٢.

(٢) الإيضاح ١٢٩.

كمال اليقين وتمام الزهد ، ودعوة إلى غلق باب الجدال معه فيما يفعله.

أما الأعرابي فقد أنكر على النبي ﷺ فعله بعد سماع مقولتـــه : (إنما أتألفهم) فقال له : اتق الله يا محمد، فغضب النبي ﷺ حينئذٍ، ولـــم يكن غضبه لأجل هذا الخطاب المنافي للأدب (يا محمد) ولكن ما أوجعه أنه يأمره بتقوى الله ، وهو أحق بها، لذلك كان رد النبـــي ﷺ غاضـــباً بهاتين العبارتين: (من يطع الله ...) و(أيأمنني الله...) وتكرير الاستفهام الإنكاري فيهما، ولم يرق غضبه مع ذلك إلى درجة الأمـــر بقتلـــه، أو الجهل عليه، بل اكتفى بهذا الخطاب العاتب الغاضب الذي يدعوهم فيـــه إلى أن يأتمنوه ولا يخونوه ؛ لأنه أتقاهم لله وأكثرهم طاعة له، إنه حسم فعلي وتطهير عملي لهم، ينقطع به الجدال حول هذه المسألة فيســـلمون بأن صنيعه هذا إنما هو بأمر الله ووحيه إليه، وقد رأى في الإنكار على ما يفعل من الصحابة ثم الأعرابي تصعيداً وإتهاماً له فقام بإرشادهم إلى أنه أتقى الناس لله، فالخطاب ليس فقط للأعرابي، إنما هو له ولصحابته معاً.

ولم يرتق غضب النبي ﷺ مع ذلك إلى ما بلغه غضب صحابة رسول الله ﷺ من سوء صنيع الأعرابي حيث قام أحدهم (قيل : خالد بن الوليد، وقيل: عمر بن الخطاب ليقتله) فمنعه النبي ﷺ قـــائلاً : إن مـــن ضئضئ هذا أو في عقب هذا قوماً يقرأون القرآن، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإســـلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) ، وفي روايـــة أخرى (ثمود) [١] والمراد استئصالهم بالكلية كما استأصل الله قوم عـــاد

---

(١) صحيح البخاري ١٥٨٤/٤ ، وصحيح مسلم ، ٤٧١/٢ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ،الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وثمود خصوصاً ، وقد تواترت كتب العلم على أنهم الخوارج، أن هـذا الرجل هو أصل نسلهم.

لقد كان كلام النبي ﷺ في هذا إدراكاً منه لخطورة هذه البـوادر في الجدال معه، إذ يتبعها جيل يتخذون ذلك منهجاً لهم، فيسـيئون مـن حيث يظنون أنهم يحسنون، إلا أنه ترك الأعرابي دون أن يأمر بقتلـه؛ لأنه لم يظهر منه سوى الجدل، أما نسله فقد بغى وقاتل؛ لـذا اسـتحقوا القتل.

٢ـــ ومن ذلك ما ورد أيضاً من حديث أنس بن مالـك – رضـي الله عنه – قال : " كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غلـيظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظـرت إلـى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذتـه ، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء " [١].

يحكي هذه الحادثة سيدنا أنس بن مالك – رضي الله تعالى عنه – وقد كان من صحابة رسول الله ﷺ الملازمين له، الذين اطلعوا علـى كثير من الأحداث التي لم يطلع عليها غيـره [٢] ، والحـديث بروايتـه ولفظه يحكي قصة حادثة الأعرابي وما فعله مع الرسول ﷺ حينما كان أنس يمشي معه في طريق لم يكن معهما فيها أحد.

ورواية الأحداث والتقديم لها والتعقيب عليها وربط ذلـك كلـه وتسلسله من كلام أنس ، وتتميز لغتـه – رضـي الله عنـه – وبيانـه

---

(١) صحيح البخاري ٢١٨٨/٥ ، وصحيح مسلم ٢/ ٧٣٠.

(٢) فقد لازم النبي ﷺ طويلاً وخدمه منذ طفولته .

بالإيجاز والتركيز والانصباب على الغرض من أول الأمر ، وهذا جزء من سمت البيان الأول، فقد جاءت رواية أنس على نحو دقيق بدءاً من أول الحديث، وفيه: (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية) .

وهي مقدمة تبسط الزمان والمكان اللذين وقعت فيها هذه الحادثة وهي كأنها أصل برأسه؛ لأنها أم الحديث ومعقد معناه ، والكلام بعدها متفرع عنها ، وراجع إليها، وهي بمثابة الفرش للجملة التي تبدأ أحداث القصة في قوله: (فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة) والكلام من هنا إلى نهاية الحديث مرتبط ومتسلسل ومتتابع، وكأنه جملة واحدة فالحديث مسوق لبيان حلمه ورأفتهﷺ مع من يجهل عليه من الناس، وهو ما حدث من الأعرابي مع الرسول ﷺ من الغلظة والجفاء فعلاً وقولاً ، فقوله : (كنت) هي حكاية للماضي الذي وقعت فيه هذه الحادثة، وقوله : (أمشي) تنبيه على مكان الحدث، وهو مكان مبهم في البادية مثلاً مشى فيه مع الرسول ﷺ وقد وردت رواية الأوزاعي لمثل هذا الحديث بأنه كان داخل المسجد أو في أحد طرقه [١] .

وقوله : (مع رسول الله) تحديد لمحل الصحبة، ووصف للرسول ﷺ بما يستحقه من صفات التكريم وهو وصف الرسالة دون التصريح باسمه العلم، كما جاء في نداء الأعرابي، وفي هذا تنبيه على سوء صنيع الأعرابي، الذي تجيء حكاية كلامه فيما بعد، وقد كرر أنس – رضي الله عنه – هذه الصفة في هذا الحديث كقوله : (صفحة عاتق رسول الله)، وقوله : (فالتفت إليه رسول الله) .

أما قوله (وعليه برد نجراني غليظ الحاشية) فوصف للباس النبي

---

(١) عمدة القاري ٣١٢/٢١، وفتح الباري ٥٠٦/١٠.

ﷺ قصد منه أنس – رضي الله تعالى عنه – بيان هيئة النبي ﷺ ليدل على أن صنيع الأعرابي فيما بعد قد أثر فيه، ليس فقط لشدة جذبه ، ولكن من أثر اللباس الخشن الذي يؤثر في العنق إذا شد حوله بقوة، وليدل أيضاً على أن النبي ﷺ قد جاءته الغنائم وأقبلت عليه الدنيا إلا أنه لم يأخذ منها شيئاً فقد اكتفى بأخشن الثبات وأغلظها حاشية (برد) أو (رداء) كما في رواية الأوزاعي [١] و(نجراني) منسوب إلى نجران .

قوله : (فأدركه أعرابي ...) تفريع عن هذه المقدمة تذكر لنا الحادثة وهي تقع من هذا الأعرابي الذي كان يسير خلفهما وهما يمشيان، فأدرك النبي ﷺ فجذبه وقال له : (يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك) وفي رواية البيهقي : (ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك) [٢] ولم يسم هذا الأعرابي في متون الحديث أو شروحه [٣] والمراد: أعطني من الطعام وغيره.

وكانت حكاية ندائه بمثابة التمهيد للغرض الأصيل من سوق هذا الحديث ، فقد نادى النبي ﷺ بالاسم العلم وهذا من عادة جفاة الأعراب وخشونتهم وعدم تهذيب أخلاقهم [٤]، ويلاحظ أن النبي ﷺ قد أعطي هذا

---

(١) عمدة القاري ٣١١/٢١.

(٢) تطريز رياض الصالحين . لفيصل النجدي (ت:١٣٧٦هـ) ٤٢٠/١ . تحقيق: د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد. الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض .الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢ م .

(٣) إرشاد الساري ٢٢٦/٥.

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٩٢/١٣ .محمد شمس الحق العظيم .طبع دار الكتب العلمية – بيروت – ط الثانية ١٤١٥هـ ، وحاشية السندي على النسائي ٣٤/٨.

الأعرابي استئلافاً له كما ذكر العلماء، فقد ذكر بعضهم أنه كان من المؤلفة، فلذلك فعل ما فعله، ثم خاطب النبي ﷺ باسمه قائلاً على وجه العنف مقابلاً لبحر اللطف : (مر لي) [١]

ولم يكن من النبي ﷺ إلا الالتفات إليه، وهذا يدل على أنه لم يتغير، ولم يتأثر من سوء أدبه، بل نظر إليه تعجباً من حاله، ثم (ضحك) كما في رواية أنس و(تبسم) كما في رواية الأوزاعي [٢] وأمر له بالعطاء، إن ضحك النبي أو تبسمه من صنيع الأعرابي لقلة فطنته وفهمه ، فلقد كان هذا الأعرابي من الجهل بحيث وقع منه هذا الصنيع، فلو تدبر حال لباس النبي ﷺ ومقامه لارتدع ولكن طبعه متحكم فيه، وليس له من النظر ما يمنعه عن هذا الفعل أو القول.

وفي هذا الحديث جفاء وغلظة بادية من صنيع الأعرابي وندائه وقوله كالحديث الذي قبله، وكلاهما مشتمل على ندائه ﷺ باسمه العلم، واعتراض عليه ﷺ في سياسة المال، إلا أن كل حديث له مناسبة، تقتضي طريقة بناء تختلف عن الأخرى، فمناسبة الحديث الأول هي اعتراض الأعرابي على قسمة النبي ﷺ للغنائم بعد اعتراض الصحابة، وهو اعتراض قولي فقط (اتق الله يا محمد) وكان رد فعل النبي ﷺ غاضباً كما سبق، أما في هذا الحديث فقد كان اعتراض الأعرابي قولياً وفعلياً قائلاً : (يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك) بعد أن أمسك بردائه وجذبه منه، وهو جهل بين ، إلا أن النبي ﷺ لم يظهر الغضب كما هو شأن الحديث الأول بل (ضحك ثم أمر له بعطاء) .

والفرق هو أن الاعتراض الأول كان أشد وقعاً، لأنه طعن في

---

(١) عون المعبود ٩٢/١٣ .

(٢) عمدة القاري٣١٢/٢١، وفتح الباري ٥٠٦/١٠.

عدل النبي ﷺ في أمر المسلمين ؛ لذا غضب النبي ﷺ هذا الغضب، أما الاعتراض الثاني هنا فقد كان طلبا للعطاء مع جهل فقط، والنبي ﷺ متسامح حليم مع أمثال هؤلاء الأعراب؛ لذا ضحك وأمر له بالعطاء، ولم يظهر الغضب تأليفاً له على الإسلام، فالأول غير طالب للعطاء ؛ لذا اكتفى النبي ﷺ بالتوجيه والنصح والإرشاد بعد الغضب دون أن يعطيه ، أما الثاني فقد طلب العطاء صراحة لذلك أعطاه النبي ﷺ.

وهناك فرق آخر بين الحديثين، فقد ركز الحديث الأول على بيان صفة الأعرابي وهيئته دون صفة النبي ﷺ وهيئته ؛ وذلك لأن الأعرابي في الحديث الأول ـــ وقد سماه بعض الشراح ـــ كان على هيئة منكرة وصفها الحديث ، وقد جاء ينكر على النبي ﷺ فعله دون أن يتعرض له بأذى فعلي، فغرض الكلام متعلق ببيان هيئته وصفته، أما صفة النبي ﷺ فغير مقصودة، ولا يتعلق غرض الكلام بها.

أما الحديث الثاني فقد كانت صفة لباس النبي ﷺ ذات أثر في بيان غرض الحديث، وهو شدة أثر الجذب من الأعرابي لكون النبي ﷺ بهذا اللباس على هذه الهيئة، وأن الدنيا قد أتته فلم يلبس من ثيابها شيئاً.

ونداء الاسم من الأعراب مناسب لجفائهم وغلظتهم ، ويدل على عدم توقير النبي أو التأدب معه في الخطاب ، وهو واقع موقعه في الحديثين مع اختلاف في الحادثة تبعه اختلاف في الصياغة وطريقة بناء النداء بالاسم تقديماً و تأخيراً عن الخبر ، أو من حيث مظاهر الغلظة في نداء كل منهما .

المبحث الثالث

نداء النبي ﷺ بالاسم العلم في مقام حواره مع غير المسلمين

نودي النبي ﷺ باسمه العلم (محمد) من غير المسلمين، وأول ما يلحظ في هذه النداءات أنها تتناسب مع نوعية المنادين واعتقادهم في الرسول الأعظم وفي ذلك يقول العيني: " ولم يكن غير المسلمين يخاطبونه بقولهم (يا رسول الله) وإنما كانوا يقولون (يا محمد) " [١] يعني: أنهم لا ينادونه بما فيه توقيره وإكرامه والنص على بعثته إليهم، بل ينادونه باسمه العلم إنكاراً وإهانة، وقد ورد " أن جده عبد المطلب سماه محمداً إرادة أن يحمده الله في السماء ويحمده الناس في الأرض"[٢].

ولذلك ذكر الشرّاح أن " الكفار من قريش كانوا من شدة كراهتهم في النبي ﷺ لا يسمونه باسمه الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده، فيقولون : مذمم ، وإذا ذكروه بسوء قالوا : فعل الله بمذمم " . [٣]

وكأنهم ينكرون المعنى الوصفي في الاسم العلم أيضاً وينادونه بخلافه، وفي ذلك كراهة شديدة للنبي ﷺ تصل بهم إلى هذا الحد في الجحود والجفاء فلا يسمونه بالاسم المتعارف المعهود، ولا ينادونه به، وكأنهم بذلك يعاملونه بخلاف المقصود من التسمية كفراً وعناداً.

والناظر إلى نداء النبي ﷺ باسمه العلم من غير المسلمين يجد

---

(١) عمدة القاري ٢٠٠/١٢.

(٢) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك . السيوطي ٧٢٦/١ . الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ١٣٨٩ه- ١٩٦٩م.

(٣) فتح الباري ٣٣٩/١٠ .

أنها قد وردت على ألسنة فريقين : الأول: كفار قريش. الثاني : اليهود.

أولاً: نداءات كفار قريش:

وردت هذه النداءات للنبي ﷺ باسمه العلم (محمد) في مواضع كثيرة يبلغ عددها أربعة أحاديث من صحيح البخاري، وهي تحكي حوار بعض كفار قريش مع النبي ﷺ كأبي سفيان وعروة بن مسعود وهما من رؤوس المشركين في مكة، وكذلك في حوار سيد أهل اليمامة ثمامة بن أثال وجميع هؤلاء من السادة الأكابر في أقوامهم كما هو ظاهر، وورد أيضاً في نداء أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب وهي من بيوت السيادة أيضاً .

والذي يلحظ في ندائهم جميعاً أنهم لم يسلكوا فيه طريق الغلظة والجفاء وسوء الأدب كما كان من الأعراب وهم مسلمون ، بل اشتمل خطابهم للنبيﷺ على رقة ولين في القول تظهر باستقراء كلامهم وسياقه ، والسبب في هذا – والله أعلم – هو أن الأعراب قد فعلوا ما فعلوه بسبب طبعهم الجاف الخشن ، وكان خطاب النبي ﷺ باسمه العلم تابعاً لذلك وخارجاً منه، ولم يكونوا يقصدون إلى أكثر من ذلك، أما السادة من كفار قريش فقد قصدوا من خطابه ﷺ باسمه ترقيق قلبه ناحيتهم، إذ جاء كل واحد منهم بشفاعة أو وفادة أو طلب عفو ، فذكروه بالاسم الدال على المدح إذا هو أجابهم إلى ما طلبوه، فهم بذلك ينظرون إلى الجانب الوصفي في الاسم ، كما أنهم بذلك غير مخالفين لاعتقادهم في النبي ﷺ من كونه غير رسول أو نبي، فلم يكونوا مؤمنين به ، وهم غير مطالبين بنداء آخر، ومن جهة أخرى فقد اختلفت هذه النداءات من حيث السبب في القدوم على النبي وندائه بهذا النداء، ومن حيث طريقة بناء النداء تقديماً وتأخيراً ، ونوع الأداة ، وغير ذلك.

١ـــ وأول هذه الأحاديث ما رود برواية أبي الضحى عـن مسـروق قال: "كنا عند عبد الله فقال: إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: اللهم سبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان مـن الجـوع، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إنك تأمر بطاعة الله وصلة الـرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، قال الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿عَائِدُونَ ﴾ " (١)

المقام هنا مقام شفاعة أبي سفيان بن حرب بن أمية فـي أمـر قريش بعد أن أصابهم القحط والجوع بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم بقوله : (اللهم سبع كسبع يوسف) وقد كان ذلك قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (٢) وقد حكى عبد الله بن مسعود ما حل بالقوم بقوله : (فأخـذتهم سـنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع) لأن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من ضعف بصره. (٣)

وقد جاء حوار أبي سفيان لذلك رقيقاً ليناً مناسباً للسـبب الـذي جاء من أجله للنبي ﷺ يحاوره ويخاطبه هذا الخطاب فقال : (يا محمد) فقدم النداء في أول كلامه ليدفع المخاطب إلى الإصغاء والتنبه (٤)، وذكر النبي ﷺ باسمه العلم دون (يا رسول الله) أو(يا نبي الله) لأنه لـم يكـن

---

(١) صحيح البخاري ٣٤١/١.
(٢) عمدة القاري ٢٧/٧.
(٣) إرشاد الساري ٢٣٦/٢.
(٤) الأساليب الإنشائية د. صباح دراز ٢٧٦.

مسلماً بعد، ولأنه أراد المعنى الوصفي من الاسم (محمد) فلو أنه دعا لهم فقد استحق بذلك حمدهم، ويكون الاسم مطابقاً للمسمى.
وفِي ذلك إشارة إلى جَوَاز النِّدَاء بِاسْمِهِﷺ فِي مَقَام التَّشَفُّع بِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَقَام يُؤَدِّي مِنْ التَّعْظِيم مَا يُؤَدِّي بِهِ ذِكْره بِاللقبِ.

إن أبا سفيان ذلك الشيخ القرشي الذي يتصل بنسب النبي ﷺ [١] قد آلمه ما وقع بقومه فجاء إلى النبي ﷺ يخاطبه هذا الخطاب، ولم يكن قد أسلم بعد؛ لأن هذه الحادثة وقعت بمكة لما رأى النبي ﷺ إدباراً من القوم، فقد استعصت قريش على النبي ﷺ فلم تدخل الإسلام، وعتت في ظلمها فآذت النبي ﷺ وأصحابه ، فدعا عليهم بالقحط والجوع بقوله : (اللهم سبع كسب يوسف) يعني : سبع سنين يشير بها إلى قوله تعالى : ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ يوسف: ٤٧ وقد ورد هذا الحديث ضمن جملة أحاديث الاستسقاء للتنبيه على أنه كما شرع الدعاء بالاستسقاء للمؤمنين، كذلك شرع الدعاء بالقحط على الكافرين؛ لأن فيه إضعافهم، وهو نفع للمسلمين، فقد ظهر من ثمرة ذلك التجاؤهم للنبي ﷺ ليدعو لهم برفع القحط[٢].

وقد احتمل أبو سفيان هذا العبء، ووضع بين يدي كلامه للنبي ﷺ تمهيداً لطلب الدعاء لقومه يشتمل على مدح النبي ﷺ والإشادة به دون الاعتراف بنبوته فقال: (إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم) فهو يصفه بصفتين جليلتين (طاعة الله) و(صلة الرحم) وقد اختارهما دون سواهما من الصفات؛ لأنهما الصفتان المناسبتان لغرضه من هذه الشفاعة وهو رفع البلاء عن قومه ، وقد كان أبو سفيان يعرف الحق

---

(١) لأن رسول الله ﷺ من ولد عبد مناف ، وأبو سفيان كذلك .
(٢) إرشاد الساري ٢/٢٣٦.

ويصرفه العناد، وقد داخل قلبه الإحساس بصدق محمد ﷺ منذ بعثتـــه " فقد كان أبو سفيان واحداً من ثلاثة رجال لم يكن في قريش أشد عداوة لمحمد ﷺ منهم، وكانوا يتسللون فرادى في جوف الليل لسماع القرآن ثم يجمعهم الطريق عند الفجر فيتلاومون ويتعاهـــدون ألا يعـــودوا ، ثـــم يعودون وهكذا ، وهؤلاء الثلاثة هم أبو سفيان ، وأبو الحكم بن هشـــام المخزومي (أبو جهل) ،والأخنس بن شريق الثقفي ، حليف بني زهرة " (١)

وقد روى ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال : " من دخل دار أبي ســـفيان فهو آمن؛ لأنه كان ﷺ إذا آوى إلى مكة دخل دار أبي سفيان " (٢).

وكان أبو سفيان في كفره محباً لأهله ورســـول الله ﷺ مـــنهم، والرسول ﷺ من أشد الناس حباً لأهله، لذلك ذكـــر هـــاتين الصـــفتين خصوصاً لارتباطهما بغرضه من الكلام .

وأتبع أبو سفيان وصفه للنبي ﷺ بذكر حال القوم فقـــال: (وإن قومك قد هلكوا) بإضافة القوم إلى النبيﷺ لترقيق قلبه نحـــوهم، فهـــم قومك لا قوم غيرك؛ فلذلك يجب عليك أن تعمل بمقتضى تلك القرابـــة فتدعو لهم أن يدفع الله عنهم القحط والجوع.

وقوله: (فادع الله لهم) ، وفي رواية : (استسق الله لمضـــر) (٣) و(مضر) قومه أيضاً فلا منافاة بينها وبين الرواية السابقة، والنص على

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٥/١ تح/ مصطفى الســـقا وآخـــرين الحلبـــى، ط/ ثانيـــة ٢٠٠١م.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج .للنووي ١٢/ ١٢٧ .الناشر : دار التراث العربي – بيروت– الطبعة الثانية ، ١٣٩٢ه .

(٣) عمدة القاري ١٦٦/١٩.

(مضر) من شأنه أن يدفع النبي ﷺ إلى المبادرة لإجابة الطلب ؛ لأنه نص على ذكر النسب الجامع بينه وبينهم، وهذا الطلب هو الغرض من قدوم أبي سفيان للنبي ﷺ وندائه بهذا النداء الرقيق (يا محمد) الذي ورد برواية أخرى أيضاً: (أي محمد) من طريق بشر بن خالد بن محمد العسكري بن محمد بن جعفر عن شعبة عن سليمان الأعمش ومنصور بن المعتمر [١]

وقد اختار بعضهم أن ينادى بـ(أي) القريب فقط [٢] وقال آخرون: هي أداة نداء للبعيد غالباً، ولا ينادى بها القريب إلا لدعوته إلى تدبر الأمر والتفطن فيه، فالنبي ﷺ مدعو بهذا النداء إلى تدبر الأمر الواقع بالقوم ليدرك المطلوب في سرعة، ويجيب المنادي إلى ما يريد من الدعاء للقوم.

لقد جاء يشفع للقوم سيد من السادات الذين يتصلون بنسب مع النبيﷺ وهو أبو سفيان، فجاء حواره مع النبيﷺ فريداً في بابه يملؤه الإكبار والتعظيم والتقدير الشخصي للرسولﷺ ، وقد كان موقناً بصدق النبيﷺ ومع ذلك لم يؤمن ، وظل يحاربه وهو موقن أنه سيظهر؛ لأن هناك فرقاً بين المعرفة والإيمان، وقد ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [الحج: ٥٤] فالعلم يقود للإيمان عند عدم الخذلان، والإيمان يقود إلى الخشية، ومجموع الثلاثة هو الصراط المستقيم. [٣].

---

(١) عمدة القاري ١٩/١٦٥.

(٢) لسان العرب ١٤/ ٥٦ (أيا).

(٣) شرح صحيح البخاري د/ محمد أبو موسى ١٠٢.

إن مواقف أبي سفيان مع الرسول ﷺ متعددة يدل جميعها على تعظيم الرسول ﷺ والمعرفة بقدره، ومن ذلك ما ورد في خبره عن الرسول ﷺ إلى هرقل. (١) ومنها أيضاً قوله بعد أن أسلم : "... فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام " (٢) فمجيئه هنا وخطابه ونداؤه للنبيﷺ مندرج تحت هذه المواقف ونابع منها.

لكن هل أجاب النبي ﷺ أبا سفيان إلى ما يريد؟

ورد هنا أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ**﴾ إلى قوله : ﴿ **عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ**﴾ فالبطشة يوم بدر، وقد مضت الدخان، فالآية تعنى الدخان الذي كان من شدة الجوع، لا أن يكون دخاناً قبل مجئ يوم القيامة كما أيده بعضهم.(٣)

ولم يقع في هذا السياق أنه دعا لهم، فالنبي ﷺ دعا عليهم أولاً بما يساعدهم على التدبر والنظر في حالهم حتى يؤمنوا، فقد ذكر المهلب:" أن النبي ﷺ إنما دعا عليهم بالسبع سنين ـــ والله أعلم ـــــ إرادة أن يضعفهم بالجوع عن طغيانهم، فإن نفس الجائع أخشع لله وأقرب للانقياد والتذلل، فأجاب الله دعوته، وأعلمه أنهم سيعودون بعد أن يرغبوا في رد العذاب عنهم " (٤) ولم يدع عليهم بالهلاك.

وقد وقع في تفسير سورة الدخان أنه (استسقى لهم فسقوا) (٥)

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٧ .

(٢) صحيح البخاري ١٦/١.

(٣) إرشاد الساري ٦٣٦/٢ .

(٤) شرح ابن بطال ٤/٥.

(٥) ينظر: إرشاد الساري ٦٣٦/٢ ، وقد ورد الحديث في مواطن متفرقة من صحيح البخاري فقد أخرجه في الاستسقاء٣٤١/١ ، وباب إذا استشفع المشركون

فدعا لهم وكشف الله عنهم القحط لكنهم لم يؤمنوا أيضاً، لذلك نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ* يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ .

لقد كان النبي ﷺ أحلم الناس وأرأفهم بأمته، ولم يدع عليهم هنا إلا لما كذبوه واستعصوا عليه، وقد حدث منهم ما هو أشد من إعراضهم وهو إيذاؤهم له لكنه صبر والتجأ إلى ربه فنجاه منهم ، كما حدث مع أهل الطائف ، وحين جاءه أبوسفيان بهذه الشفاعة، منادياً له هذا النداء قبل شفاعته وأثمرت وساطته فاستسقى لهم كما ورد.

٢ـــ ومن ذلك أيضاً ما ورد في حديث الحديبية [١] وفيه أن عروة بن مسعود قام فقال : " أي قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: ألست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونني؟ قالوا: لا ، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا [٢] علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتيه . قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخر فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً [٣] من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك"

بالمسلمين عند القحط ١٧٩١/٤ والتفسير ٣٤٦/١ ، وأورده مسلم عن مسروق في التفسير والتوبة والترمذي والنسائي في التفسير ، ينظر: إرشاد الساري ٦٣٦/٢.

(١) روى البخاري بسنده هذا الحديث عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : (خرج رسول الله ﷺ في زمن الحديبية ... الخ) صحيح البخاري ٩٧٤/٢ .

(٢) بلحو : استراحوا وقووا وامتنعوا.

(٣) أشواباً : جمع شوب ، أي أنواع مخلتطة من الناس.

هذه القطعة من حديث الحديبية تحكي وفادة عروة بن مسعود على النبي ﷺ بعد وفادة بديل بن ورقاء الخزاعي في شأن صد قريش للنبي ﷺ عن زيارة البيت الحرام بمكة، وما دار من مفاوضات بين الفريقين حول ذلك.

وأول ما يلحظ في هذه القطعة من الحديث أنها حوار عقلاني يديره عروة بن مسعود بمهارة واقتدار، يريد به الوصول إلى غايته ، وهي إقناع قومه بخطة النبي ﷺ وفي الوقت نفسه استمالة النبي ﷺ إلى صفه أيضاً.

ولأجل ذلك فإننا ننظر إلى نداء عروة للنبي ﷺ باسمه (أي محمد) وخطابه له نظراً مختلفاً عن نداء بقية أهل الكفر من غير المسلمين؛ لأنه وفد على النبي ﷺ مصلحاً وساعياً في السلم ونبذ الحرب، فكان في كلامه رقة ولين ورفق وتودد وأدب لا يكون من أهل الكفر في خطاب النبي ﷺ فكانت أداة النداء (أي) وكانت جملة النداء رقيقة حانية لم يقصد بها سوى التحبيب في ترك القتال.

وقد كان من خبر هذا الحديث أن النبي ﷺ قد خرج إلى مكة قاصداً العمرة إلى البيت الحرام فصده كفار قريش، وبعثوا له بديل ومعه نفر من خزاعة ينصحونه بالرجوع؛ لأن قريشاً ومن معهم مقاتلوه وصادوه عن البيت، فعرض النبي ﷺ عليهم الإسلام، وترك قتاله، وأن يتركوه والناس، وإن شاءوا ماددهم مدة أي صالحهم، فدخلوا في الإسلام بعدها أو قاتلهم (حتى تنفرد سالفتاه) أي حتى ينفرد في قتالهم وحده، أو حتى يقتل، فأخبر القوم بذلك، فلم يرضوا وجاء عروة فقال ما قال ساعياً في الصلح [١]

---

(١) ينظر : فتح الباري ٣٣٩/٥ .

ومن أمارات صدقه وإخلاصه في الوصول إلى صلح يحقق الأمن والسلام ما جاء في هذا الحوار مع قومه ومع النبي ﷺ فقد افتتح كلامه بقوله لقومه : (أي قوم) وفي ذلك رفق ولين معهم في القول؛ لأن (أي) أداة نداء للبعيد غالباً، فإذا نودي بها القريب فإنها تتصمن حرص المنادي على إقبال المدعو عليه ومفاطنته [١]

وقد نادى عروة قومه بهذه الأداة حرصاً منه على إجابتهم، وعلى تدبرهم معاني كلامه، ثم تجئ الجمل الاستفهامية المتعاقبة بعد ذلك لتقررهم بالحقائق التي سألهم عنها، فإن هم أقروا بأنه ناصح أمين، فالمطلوب منهم حيئنذ أن يسمعوا كلامه ، ويقبلوا خطة الرشد التي عرضها النبي ﷺ عليهم وأن يتركوه ليأتي النبي ﷺ فيسعى إلى رده عن قتالهم، والصلح بينهما.

وانظر إلى قوله : (فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد) يريد النبي ﷺ فعبر عنه باسم الإشارة للقريب تقليلاً من شأن النبي ﷺ لأن الحوار كان بحضرة قومه، ولم يكن هناك ما يمنعه من الحديث عنه بما هو فيه تقليل شأنه وتحقيره.

ويمكن أن نفهم أيضاً دلالة الإشارة في قوله: (هذا) على أنها دليل على أن النبي ﷺ قريب منكم جداً، قادر على النيل منكم، فالمسافة الفاصلة بينه وبين اجتياحكم لا تذكر، فهو بجواركم ، وعلى حدودكم فاقبلوا ما يعرضه ، والسبب في تقديم عروة لهذا الكلام عند قريش " ما رآه من ردهم العنيف على من يجيء من عند المسلمين " . [٢]

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب الزمخشري ٤١٣/١.

(٢) فتح الباري ٣٣٩/٥.

ولعل بصر عروة بمرامي الكلام ، وفقهه لما جاء في نصح النبي ﷺ قومه وأهل قرابته في قوله لبديل أولاً : (إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس) [١] كل ذلك دفعه إلى نصح قومه بهذا النصح ، كما أن لين عروة مع قومه دليل على أنه كان من أهل الإصغاء إلى النبي ﷺ والميل إليه إلى درجة نفاذ فهمه لما قاله النبي ﷺ لبديل.

وقد روي أنه أسلم بعد ذلك، ورجع إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فقتلوه.[٢] وفي مقولته للنبي ﷺ سلوك لطريق الأدب على الرغم من عدم إسلامه في هذا الوقت ؛ لأنه جاء ساعياً في الصلح، فقد بدأ خطابه للنبي ﷺ بقوله : (أي) وهي نفس الأداة التي خاطب بها عروة قومه حرصاً على إقبالهم ودعوتهم إلى تدبر كلامه ، لكنه نادى النبي ﷺ باسمه العلم ؛ لأنه لم يكن مسلماً حينئذٍ فناداه بما هو معلوم معهود لديهم من التنادي بالأسماء في مثل هذه المواقف.

وقدم هذا النداء بين يدي كلامه ليضمن إصغاء النبي ﷺ وإقباله وتنبهه إلى ما يريد من جملة النداء، وتضمنت هذه المناداة تقريب النبي ﷺ والتودد إليه بغرض تحبيبه في الصلح وترك القتال ، واشتملت جملة النداء بعد ذلك على رفق وتودد في خطاب النبي ﷺ قصد عروة منه تحقيق غرضه وهو الصلح فقال: (أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك) .

---

(١) صحيح البخاري ٢/٩٧٤.

(٢) عمدة القاري ١٤/٩.

وجملة (أرأيت) تدل على أن النبي ﷺ كان يومئذٍ في جمع يخاف منه عروة على أهل مكة الاستئصال لو قاتلهم : فإن الاستفهام بها بمعنى:أخبرني، ولا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة بمعنى أنه في الغرابة عجيب لا يرى له مثل.(١)

وكذلك أدرك عروة أن في قوله ﷺ : (لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذنّ الله أمره) (٢) تهديداً صريحاً بقتلهم واستئصالهم بالكلية فقال تلك المقولة ذاكراً أنهم قومه أولاً (أمر قومك) ، وأهله ثانياً (اجتاح أهله) وفي ذلك تدرج في الدعوة إلى العفو بذكر قرابته العامة منهم أولاً (قومه)، ثم ذكر قرابته الخاصة بهم (أهله) وبنو رحمه.

ثم قال: (وإن تكن الأخرى) بإبهام المقصود وحذف الجزاء تأدباً مع النبي ﷺ (٣) والمعنى: وإن تكن الغلبة لقريش لا آمنهم عليك مثلاً، وقوله : (فإني والله ...الخ) كالتعليل لهذا المحذوف، ولو صرح بغلبة قريش وهزيمة النبي ﷺ لكان ذلك تهديداً وإساءة لم يقصد عروة إليهما من كلامه ، يقول ابن حجر: " والحاصل أن عروة ردد الأمر بين شيئين غير مستحسنين عادة وهو هلاك قومه إن غَلَب، وذهاب أصحابه إن غُلِب، لكن كلا الأمرين مستحسن شرعاً كما قال تعالى : ﴿قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ (٤) وهو ما لا يدركه عروة لأنه غير مسلم حينها، فردده بين أمرين غير مستحسنين في ظنه، وحذره فرار

---

(١) الكليات ٢٤٩/١.
(٢) صحيح البخاري ٩٧٤/٢.
(٣) فتح الباري ٣٤٠/٥.
(٤) السابق ٣٤٠/٥.

جيشه عنه بقوله : (فإني والله لأرى وجوها...الخ) يشير بذلك إلى عادة جرت بين العرب، وهي أن الجيوش إذا كانت من قبيلة واحدة فإنهم يأنفون الفرار في العادة أما الجيوش المجتمعة من أخلاط الناس فلا يؤمن عليها ذلك "[١].

ولم يذكر هزيمة النبي ﷺ صراحة، وفي ذلك تحبيب في العفو والصلح ، ودفع للقتال، وتلطف في الخطاب ، وما درى عروة أن مودة الإسلام أعظم من مودة القرابة؛ لأن هذه العادة كانت في الجاهلية، أما الإسلام فقد عقد بين قلوب المؤمنين فوق ما تعقده القرابات لقراباتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات ١٠.

وهذه الوجوه والأشواب بينها من الصلة والقرابة والمحبة للنبي ﷺ ما يدفعهم إلى القتال معه وعدم الفرار عنه، وقد رأى عروة ذلك بنفسه فقد رجع إلى قومه وقال لهم : (أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها) [٢].

وإنما أكثروا من ذلك بحضرة عدوه وتزاحموا عليه لأجل قوله: (إني لأرى وجوهاً... الخ) فأروه أنهم أشد اغتباطاً وتبركاً بأمره، وتثبتاً

---

(١) عمدة القاري ١٠/١٤.

(٢) صحيح البخاري ٩٧٤/٢.

في نصرته من القبائل التي تراعي الرحم بينها . [١]

فكل هذا التعظيم والتوقير والمبالغة فيهما له ما يبرره وهو قول عروة، فالسياق الشرعي الحاكم هنا داعٍ إلى مثل هذه الأفعال من تناول نخامته ﷺ ودلك وجوههم وأجسامهم وغير ذلك إلى الحد الذي يراه المخالفون منافياً للذوق والنظافة والآداب العامة وغير ذلك من مقولات لا يقصد منه إلا التشويه والبحث عن الشبه والطعن في سيرة خير المرسلين، دون تدبر في السياق والدافع إلى مثل هذه الأفعال.

ولأجل ذلك كله فإن نداء عروة واقع في محله، مناسب للغرض من كلامه وهو التحبيب في العفو وترك القتال، هو سيد من سادات قومه وفد على الملوك مثل كسرى وقيصر والنجاشي، وكان محل ثقتهم واحترامهم فكان أدبه ظاهراً في الخطاب .

وإذا جئنا إلى مواضع أخرى من حديث الحديبية وهو حديث طويل فإننا سوف نجد أن النبي ﷺ قد خوطب باسمه العلم أيضاً من سهيل بن عمرو أحد سادات قريش بعد ذلك حين دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة مسلماً حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل بن عمرو: (هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد) [٢]

والذي يلاحظ على هذا النداء أنه ليس أول كلام سهيل للنبي ﷺ فقد جاء بعد ثلاثة نفر أولهم بديل، ثانيهم عروة، ثالثهم رجل اسمه مكرز

---

(١) شرح ابن بطال ١٥/١٤٠.

(٢) صحيح البخاري ٢/٩٧٤، عمدة القاري ١٤/٤.

بن حفص كان فاجراً، وبينما هو في طريقه إلى المسلمين جاءه سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ حينئذ: لقد سهل لكم من أمركم تفاؤلاً بالاسم من جهة[١] ولعلمه أن قريشاً دعت سهيل بن عمرو فقالوا له : اذهب إلى هذا الرجل فصالحه فأعلمه الله بذلك. [٢]

وجاء سهيل فكان أول ما قاله : (هات اكتب بيننا وبينكم كتابا) حتى جاء إلى موضع كتابة العهد بأن يرد المسلمون من جاء إليهم مسلماً من مكة، فدخل حينئذ ابنه أبو جندل ، وكان أسلم بمكة وحبسه أبوه وقيده فهرب وجاء إلى النبي ﷺ فقال سهيل في سرعة : (هذا يا محمد أول ما أقاضيك أن ترده إلى).

إن سهيلاً متلهف إلى إبرام شرطه، لكن عرض له لحظة كتابته عارض خطير هو مجيء ابنه مسلماً فقال : (هذا) يشير إلى ابنه (يا محمد) يخاطب النبي ﷺ باسمه كعادة قومه قبل الإسلام، والنداء معترض بين المبتدأ وخبره وقد كان موضعه أول الجملة؛ لأن النداء في أصله لتنبيه الغافل أو البعيد [٣] لكن لما كانت هذه الجملة وسط حديث طويل بينهما تضمن كتابة بنود الصلح فلم يكن النبي ﷺ غافلاً أو بعيداً حتى يصدر الكلام بالنداء.

وذكر النبي ﷺ باسمه هنا يراد منه المعنى الوصفي في الاسم؛ فإن رد الرسول ﷺ لأبي جندل أمر محمود عند سهيل، لذا ذكره باسمه

---

(١) عمدة القاري ١٤/٤.

(٢) السابق ١٤/٤.

(٣) الأساليب الإنشائية د. دراز ٦٧.

(محمد) لملاحظة ذلك. [١]

والناظر إلى نداءات المؤمنين بعد ذلك في هذا الحديث يجد أنها جاءت بغير الاسم العلم توقيراً وتعظيماً كما في نداء أم سلمة للنبي ﷺ : **(يا نبي الله)** [٢] بعدما أمر النبي ﷺ قومه بالنحر والحلق بعد كتابة الصلح فلم يفعلوا، فقالت: (يا نبي الله) تنبيهاً على علمه بما لا يعلمون، ولم تقل: (يا رسول الله) أو (يا محمد) فإن النبي هو المخبر بما في الغيب عن الله ، وسمى نبياً ؛ لأنه نبئ وأخبر من قبل الله تعالى[٣].

وكما في نداء أبي بصير القرشي الذي أسلم وجاء إلى النبي ﷺ فرده إليهم فأبي ذلك وقتل آخذيه، وفر إلى المدينة ، فدخل على الرسول ﷺ فقال: (يا نبي الله قد – والله – أوفى الله ذمتك وقد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم) [٤] وهو يناديه بذلك تنبيهاً على أنه من المسلمين ، وأن لديه خبر السماء الذي ينبئ به الناس ولكنهم لا ينتبهون ، لكن النبي ﷺ لم يحمد صنيعه لما فيه من نقض العهد والغدر الذي نواه بقريش، فأدرك

---

(١) سهيل بن عمرو كان أحد أشراف قريش وخطيبهم ، أسر يوم بدر فقال عمر – رضي الله عنه – : (انزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً) فقال رسول الله ﷺ : دعه فعسى أن يقوم مقاماً تحمده ، وأسلم يوم الفتح وكان رقيقاً كثير البكاء عند قراءة القرآن، فمات رسول الله ﷺ واختلف الناس بمكة وارتد كثيرون فقام سهيل خطيباً فسكن الناس ومنعهم من الاختلاف، وهذا هو المقام الذي أشار إليه رسول الله ﷺ ، ينظر: عمدة القاري ٢٩٠/١٣ .

(٢) في قولها : (يا نبي الله أتحب ذلك؟! اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك) صحيح البخاري ٩٧٤/٢.

(٣) المفردات للأصفهاني (نبأ)مكتبة نزار مصطفي الباز،(ط ١) ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٤) صحيح البخاري ٩٧٤/٢.

أبو بصير أن النبي ﷺ عازم على رده لقريش، ففر إلى ساحل البحر، وتبعه نفر ممن أسلم ولم يقبلهم النبي ﷺ يترصدون قوافل قريش فيعترضونها ويقتلون من فيها.

إن تنوع خطاب النبيﷺ في هذا الحديث لهو دليل واضح على ما قصدت إليه من أن نداءه ﷺ مرتبط بشخص المنادي ، ونوعية السياق وتباينه من حيث المتكلم وأداة النداء وجملة النداء وطبيعة النظم الذي تقوم عليه هذه الجملة ، وقد ظهر ذلك في التنوع الواقع بين نداءات هذا الحديث.

٣ـــ ومن نداءات الكفار للنبيﷺ باسمه أيضاً ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: " بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة ".[١]

والناظر إلى هذا الحديث يجد أنه يدور حول قصة إسلام ثمامة

---

(١) الحديث متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري ١٥٨٩/٤، وصحيح مسلم١٣٨٦/٣، ونيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار الشوكاني ١٠٤/٨ الناشر:إدارة الطباعة المنيرية ، تعليق محمد منير الدمشقي.

بن أثال بعد أسره في سرية نجد [١] وهي أول عمل عسكري بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة، وفي طريق عودة السرية تم أسر ثمامة بن أثال الحنفي والصحابة لا يعرفونه ، وقد ورد أن النبي ﷺ لما خرج إليه قال لأصحابه: (أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إساره)[٢].

وقد حكى أبو هريرة – رضي الله عنه – هذه الحادثة ، ونقل الحوار الدائر بين هذا الرجل وهو سيد قومه بني حنيفة باليمامة [٣] وبين النبي ﷺ وما انتهى إليه الحوار من عفو النبي ﷺ عنه وإطلاق سراحه، وإسلام ثمامة ودفاعه عن الإسلام ونبيه كأحسن ما يكون.

ويجيء نداء النبي ﷺ باسمه العلم من ثمامة في موطنه من هذه المحاورة دالاً على عناد ثمامة وتكبره نظراً لمحل سيادته في قومه ومنعته فيهم فهو خطاب الند للند في زعمه، وأمارات ذلك في الحديث واضحة: ففي أول الحديث نجد وصف أبي هريرة لثمامة كما ورد في بعض الروايات بأنه " رجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة" [٤] وهذا خير تعريف به بذكر اسمه وقبيلته ومحله فيهم، وهذا تمييز له أكمل تمييز ليدل على سبب تلطف النبي ﷺ به وعدم قتله في أول الأمر وذلك لأنه يسن الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى

---

(١) سرية نجد : كان أميرها محمد بن مسلمة، أرسله الرسول ﷺ في ثلاثين راكباً إلى بني القرطاء من بني بكر بن كلاب بناحية ضربة بالبكرات لعشر ليال خلون من المحرم سنة ست من الهجرة. ينظر: عمدة القاري ٢٣٦/٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٣٦٨/٢ .

(٣) بنو حنيفة : قبيلة كبيرة شهيرة ينزلون باليمامة بين مكة واليمن . ينظر : فتح الباري ٨٧/٨، ونيل الأوطار ١٠٤/٨.

(٤) صحيح البخاري ٨٥٣/٢.

ولاسيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير. [١]

وهذا الحوار الدائر بين النبي ﷺ وثمامة حوار فريد في بابه تستل منه ضغائن المتحاورين، فلا تكون نتيجته إلا عفو النبي ﷺ عن ثمامة لما بدر منه من قتل جماعة من صحابة رسول الله ﷺ غدراً وإهدار دمه، ثم إسلامه عقب ذلك ودفاعه عن النبي ﷺ والإسلام كأحسن ما يكون.

وكان أول كلام النبي ﷺ له في اليوم الأول هو سؤاله : (ما عندك يا ثمامة؟) يعني به: أي شيء عندك وقد أسرت وأمكن الله منك؟ فأجاب بأنه ظن خيراً فقال: (عندي خير يا محمد) أي: لأنك لست ممن يظلم بل ممن يعفو ويحسن [٢]، فالنبي ﷺ ينادي ثمامة باسمه مقدماً السؤال على النداء مصرحاً باسمه دون لقبه، لذلك جاء رد ثمامة مثله بتقديم السؤال على النداء مصرحاً بالاسم العلم للنبي ﷺ محمد دون غيره من صفات النبوة أو الرسالة أو الألقاب المشهورة، وقد كان ذلك موافقاً لمحل سيادته إذ ينادي النبي ﷺ بذلك على عادتهم.

وقد كرر الرسول ﷺ ذلك السؤال في يومين آخرين، وكان جواب ثمامة شبيهاً بذلك.

وخطاب النبي ﷺ لثمامة فيه قدر كبير من التلطف واللين، والهدوء الذي لا عنف فيه بما يتفق مع رغبة النبي ﷺ في تأليف قلب هذا الرجل وتحبيبه في الإسلام وهو سيد قومه بني حنيفة باليمامة، فقد نادى النبي ﷺ في اليوم الأول باسمه فلم يتأثر ولم يعاتبه، وقال : (عندي

---

(١) عمدة القاري ٤/٢٣٧.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود٧/٢٤٣ .

خير يا محمد) بتقديم جملة النداء على المنادى لما فيها من البشارة من ثمامة بأن ما عنده لن يسوء به المسلمين، ثم قال : (إن تقتلني تقتل ذا دم...) تفصيلاً لقوله : (عندي خير) [١] وإكمالاً لمقصوده ، ويدل تكرار فعل الشرط في الجزاء (تقتل ــ وتنعم) على فخامة الأمر[٢] ، وقوله (ذا دم) أي صاحب دم ، لدمه موقع يشتفي قاتله بقتله ، ويدرك ثأره لرياسته وعظمته.[٣]

وقدم أشق الأمرين عليه وأشفاهما لصدر خصومه وهو القتل على العفو والإنعام ليستلّ بذلك غضب النبي ﷺ وأصحابه، ويستجلب عفوهم ويسترضيهم، وفي اليوم الثاني والثالث يتكرر السؤال وتتكرر الإجابة مع اختلاف في النظم هدفه التدرج في طلب العفو، فذكر في اليوم الثاني العفو فقط فقال: (عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر) لأنه لما لم يقع القتل في اليوم الأول اقتصر على ذكر الاستعطاف وطلب الإنعام في اليوم الثاني.

وفي اليوم الثالث قال: (عندي ما قلت لك) فحذف الأمرين جميعاً لتقدم دليل على الحذف في اليومين السابقين، وللاستعطاف التام، والتفويض إلى جميل خلقه ﷺ.

" فكأنه في اليوم الأول رأى أمارات الغضب فقدم ذكر القتل، فلما لم يقتله طمع في العفو فاقتصر عليه، فلما لم يعمل شيئاً مما قال اقتصر في اليوم الثالث على الإجمال تفويضاً إلى جميل خلقهﷺ " [٤]وقد

---

(١) فتح الباري ٨٨/٨ ، ونيل الأوطار ١٠٤/٨.

(٢) إرشاد الساري ٤٣٣/٦.

(٣) فتح الباري ٨٧/٨.

(٤) فتح الباري ٨٨/٨ ، وإرشاد الساري ٤٣٣/٦.

وافق ثمامة في هذه المخاطبة قول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) آل عمران:١١٨ لأن المقام يليق بذلك.

وقد وقف العلماء أمام قول النبي ﷺ : (أطلقوا ثمامة) باحثين عن سبب عفوه ﷺ عنه ، ودارت أقوالهم حول سببين رئيسيين :

الأول: المن عليه وتأليف قلبه لما علم ﷺ بإيمان قلبه، وأنه سيظهره فيما بعد، فقد قيل لثمامة: مادمت فكرت في الإسلام، فلماذا لم تسلم من أول يوم، ومكثت في الأسر مربوطاً ثلاثة أيام؟ قال: لئلا تقولوا : أسلم خشية السيف. (١)

الثاني: أنه أسلم فعفا عنه النبي ﷺ (٢).

والأظهر الثاني كما صرح به في بقية روايات الحديث من طريق ابن خزيمة وابن حبان، فقد روى ابن خزيمة عن أبي هريرة أنه مر النبي ﷺ عليه يوماً فأسلم فحله، وبعث به إلى حائط أبي طلحة فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين فقال: لقد حسن إسلام أخيكم. (٣)

وبهذا اللفظ أيضاً أخرجه ابن حبان في صحيحه ، وأخرجه البزار بهذه الطريق(٤) ، وذكر الطحاوي في بيان مشكل الآثار (٥) أنه أسلم فحله أيضاً ، ولهذا فإنني أطمئن إلى القول بإسلامه قبل إطلاقه للنص عليه في بعض طرق الحديث، ولأن القول بأن النبي ﷺ أطلقه

---

(١) عمدة القاري٤/٢٣٧.

(٢) إرشاد الساري ١/٤٥٠ ، ٤٥١ ، وعمدة القاري ٤/٢٣٧.

(٣) إرشاد الساري ٤/٢٣٨، وعمدة القاري٤/٢٣٧.

(٤) عمدة القاري ٤/٢٣٧.

(٥) بيان مشكل الآثار ١١/١١٨ .

تأليفاً لقلبه لما علم من أنه سيظهر إسلامه فيما بعد قول محتمل، ولعل صاحبه [١] لم يقف على حديث أبي هريرة.

أما من احتج [٢] بأنه لم يسلم تحت الأسر لعزة نفسه ، وأن الرسول ﷺ أحسن بذلك منه فقال: أطلقوه، فلما أطلق أسلم فهو قول يتحقق أيضاً بإسلامه ثالث الأيام؛ لأنه ظل يراجع النبي ﷺ يومين متتاليين لم يخف فيهما القتل بالسيف، فلما أمن في ثالث الأيام على نفسه أسلم فحله النبي ﷺ ، وإن أهمل بعض رواة الحديث ذلك، فهو ثابت في روايات أخرى ، وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده نجد أنه لم ترد فيه إشارة إلى إسلامه قبل حله، لكن ورد فيه أن النبي ﷺ قال: (أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ...) [٣] لقد رجع إلى المسجد مرة أخرى بعد إطلاقه من الأسر لينطق بالشهادتين ، فكأنه عاد إلى الأسر مرة أخرى ، ثم أطلقه النبي عقب إسلامه ، وانظر إلى الفاء في قول أبي هريرة :(فانطلق) عقب قوله ﷺ (أطلقوا ثمامة) فكأن ثمامة قد أسلم لكن ما منعه من النطق بالشهادتين هو عدم الاغتسال فانطلق ليتطهر في نخل قريب من المسجد فيعود فيعلن إسلامه ناطقاً بالشهادتين في سرعة .

ثم نادى النبي ﷺ مرة أخرى باسمه العلم مقدماً لاسمه على جملة النداء ليدفعه إلى التنبه إلى الخبر العظيم الذي جاء به وهو تبدل

---

(١) ينظر: عمدة القاري ٢٣٧/٤.

(٢) وهو قول ابن الجوزي ، ينظر: عمدة القاري ٢٣٧/٤.

(٣) صحيح البخاري ١٥٨٩/٤.

حاله وانقلاب يقينه في النبي ﷺ فقد كان كافراً فأسلم، ومبغضاً للنبي ﷺ فصار محباً له وأقسم على ذلك ، لتأكيد إسلامه محبته ، ورجع إلى النبي ﷺ لينظر الرسول ﷺ في أمره قائلاً : (وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره الرسول ﷺ وأمره أن يعتمر) [١] مطلقاً سراحه نهائياً بعد إسلامه.

إن قصة إسلام ثمامة تدل دلالة واضحة على أن الإسلام وصل إلى القلوب بالإقناع والموعظة الحسنة، فلم يغلظ عليه النبي ﷺ ولم يجبره على الإسلام لكنه أحسن بعظمة الإسلام في شخص النبي ﷺ وصحابته، وهو يراهم كل صلاة ويراقب أفعالهم ويرى منهم حسن الخلق وطيب العشرة ورقة المعاملة، فهم – وإن ربطوه بسارية من سواري المسجد والنبي ﷺ يقرهم على ذلك – يريدون بذلك تأليف قلبه ، وسل سخائم النفس منه حتى يتطهر ويصفو من أكدار الكفر، فما يكون إلا ما أراده الله من نصرة الإسلام بإيمان هذا السيد، وقد رأى المسلمون ذلك حين ذهب ثمامة للعمرة فقال له أهل مكة: (لقد صبوت. قال: لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ)[٢].

وانظر إليه يكرر اسم النبي ﷺ : (مع محمد) بعد ندائه بنفس الاسم ، تلذذاً بذكره في الحديث فإنه قد ذاق حلاوة الإيمان، وصار النبي ﷺ والمسلمون ودينهم وبلدهم أحب شيء إليه بعد أن كانوا أبغض شيء إليه، ثم كان منه هذا الموقف العظيم حين منع حنطة اليمامة عن مكة حتى يأذن له النبيﷺ.

---

(١) صحيح البخاري ١٥٨٩/٤.

(٢) السابق ١٥٨٩/٤.

ولم يقل: (أسلمت مع محمد) فقط، ولكنه يتبع اسم النبي ﷺ بوصف الرسالة تعظيماً له ﷺ وتأكيداً على إسلامه، وهذا من الأسلوب الحكيم [١] من تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيهاً على أنه الأولى بحاله وذلك في رد ثمامة على قولهم له : (صبوت؟) أي أخرجت من ديننا، كأنه قال: ما خرجت من الدين لأنكم لستم على دين فأخرج منه، بل استحدثت دين الله وأسلمت مع رسول الله ﷺ .

٤ـــ ومن ذلك أيضاً ما رواه البخاري بسنده عن جندب بن سفيان – رضي الله عنه – قال : " اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت : يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [٢] .

اشتكى النبي ﷺ المرض ، فلم يقم للصلاة ليلتين أو ثلاثاً، وقيل: خمسة عشر يوماً[٣]، فجاءت هذه المرأة الكافرة بهذا الخطاب المجافي للأدب مع مقام النبوة، فنادته باسمه العلم ، وأغلظت له في القول. وخطابها دال على الجهل والسفه في محاورة النبي ﷺ وندائه.

ومن مظاهر ذلك في نظم الحديث ما يلي:

أولاً: نداؤه ﷺ باسمه العلم (يا محمد) .

ثانياً: سوء الأدب في جملة النداء، حيث وصفت المرأة الوحي بأنه من الشيطان، وأضافته إلى النبي ﷺ ، فقالت: (وإني لأرجو أن يكون

---

(١) الإيضاح ٧٩ .

(٢) صحيح البخاري ١٨٩٢/٤ (باب ترك القيام للمريض) ، و(باب التفسير في الضحى) و(باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل).

(٣) إرشاد الساري ٣١١/٢.

شيطانك قد تركك) .

ثالثاً: كان ذلك القول سبباً في نزول سورة (الضحى) ويعني هذا أن تلك الجفوة كانت في بداية أمر الدعوة بمكة، وهذه المرأة كافرة لا تعرف للنبي ﷺ قدره، وهي بحكم كونها امرأة لا رجلاً فإنه مما يحسن منها التأدب في الخطاب أكثر من غيرها، لكنها جاءت بهذا النداء المخالف.

رابعاً: كانت هذه المرأة من بيت من بيوت السادة والشرف في قريش فقد ذكر أنها " أمرأة أبي لهب، وهي أم جميل العوراء بنت حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهي أخت أبي سفيان بن حرب" (١).

ومن أجل ذلك لم تأت في خطابها بما يقتضيه مقام رسول الله ﷺ من التأدب معه وتوقيره، بل أتت بهذا الخطاب الدال على الاستعلاء والجفاء والجهل.

والناظر إلى بنية الحديث وتركيبه يلاحظ أنه ابتدأ بقول جندب – رضي الله عنه – : (اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين) وهذه الجملة هي رأس الكلام وأصله، فإن الراوي يريد أن ينبه إلى خطأ هذه المرأة في خطابها واتهامها، فإن ترك القيام للمريض مشروع، ولا دلالة فيه على ما تمنته من زوال الوحي وعدم عودته ، كما أن هذه الجملة تبين سبب نزول سورة (الضحى) وفيها ذكر أن الله تعالى لم يقطع وحيه عنه بسبب هجر أو قلي، وبيان علة شكواه ثم انقطاعها برجوع الوحي واطمئنانه إلى أنه رسول الله ﷺ.

وقوله: (جاءت امرأة) بالتنكير، لوقوع الخلاف في اسمها، فالقول الأول: أنها امرأة أبي لهب، كما سبق في هذه الرواية ، فقد

---

(١) وذلك في رواية البخاري، ينظر: فتح الباري ٧٣٨/٨.

جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : (يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا) فنادته ﷺ باسمه دون لقبه، فقد كانت غير مسلمة، وحديثها دالٌّ على التهكم والشماتة، فبدأت كلامها بالنداء المجافي للأدب (يا محمد) وقالت : (إني لأرجو) بأسلوب الرجاء الذي يدل على إضمار الحقد على نبوته ورغبتها في زوال الرسالة عنه، ولفظة (شيطانك) مستكرهة جداً هنا، فقد وصفت جبريل صاحبه عليه السلام بالشيطان، وأضافته إلى النبي ﷺ لإرادة تحقيره ، وقالت (تركك) أي هجرك وقلاك، وأقسمت على ذلك بدليل اللام في (لأرجو) وقد في (تركك) لتحقيق الفعل.

والقول الثاني: أنها خديجة، أو عائشة [١]، أو إحدى عماته أو بنات عمه [٢]، ولعل هذه المرأة غير التي سبقتها بدليل اختلاف رواية ما قالته، فقد روى أنه : (قالت امرأة : يا رسول ، ما أرى صاحبك إلا أبطأ عنك) [٣] وأي واحدة من هؤلاء يليق بها نداء النبي ﷺ بـ(يا رسول الله) كما ورد هنا، ولا يليق بها النداء السابق، فلا يمكن حمل هذه المرأة على غير هؤلاء النسوة اللاتي يعرفن للنبي ﷺ قدره، فقد نادته هنا بهذا النداء الدال على التوقير والاعتراف بالنبوة، ووصفت جبريل بأنه (صاحبك) دون (شيطانك) والصاحب هنا لا يدل على إهانة أو تقليل شأن، بل هو دال على الملازمة وطول الصحبة ، وقد ورد التعبير عن النبي ﷺ بذلك في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾التكوير ٢٢.

---

(١) وهذا غلط لأن عائشة لم تكن زوجته بعد.

(٢) فتح الباري ٩/٣ ، وإرشاد الساري ٣١١/٢.

(٣) كما في : فتح الباري ٣١٩/١ ، وإرشاد الساري ٣١١/٢.

وقالت: (ما أرى صاحبك إلا أبطأ عنك) فكلامها متضمن لبيان سبب تأخر الوحي، وأنه مجرد إبطاء لا انقطاع، وسياق القول هو التوجع والتأسف لا التهكم والشماتة كسابقه.

وهكذا يتضح لنا أن النداء مرتبط بسياق الكلام ونظمه في كل موضع، حيث نودي النبي ﷺ من المرأة بما يليق به ، ويتوافق مع السياق حسب كل رواية ، فعلى القول بأنها أنها خديجة، أو عائشة أو إحدى عماته فإن نداءها نداء تكريم وتعظيم وتوقير واعتراف بالنبوة ، وعلى القول بأنها امرأة أبي لهب فإن نداءها بالاسم جاء مخالفاً للأدب مع النبيﷺ وهو لا يندرج مع بقية نداءات الكافرين التي جاءت لترقيق قلب النبيﷺ ودفعه إلى العفو، مع ما فيها من التلطف في خطابه في سياقات ما جاءوا به إلى النبيﷺ من وفادة أو شفاعة أوطلب عفو ، فالنداء واحد والطريق إلى فهمه مختلف تبعاً للسياق الداعي والنظم الوارد.

ثانياً: نداءات اليهود (يا محمد)

كان اليهود ينادون النبي ﷺ بالاسم العلم (محمد) شأنهم شأن أهل الكفر ممن لم يؤمن بنبوته ﷺ ، وكان ذلك مما يؤذي صحابة النبي ﷺ إذا سمعوهم يقولون ذلك، فقد ورد في كتب الصحاح من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: " كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله ، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ : إن اسمى محمد الذي سماني به أهلي، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ : أينفعك شيء إن حدثتك؟ قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: سل.." (١)

أنكر ثوبان مولى رسول الله ﷺ على اليهودي خطابه وندائه للنبي ﷺ بهذا النداء ودعاه إلى مخاطبته بما يليق به من أوصافه الشريفة مثل يا رسول الله أو يا نبي الله أو غير ذلك، ولم يكتف بزجره، بل دفعه دفعة كاد يصرع منها كما حكى عن نفسه، فما كان من اليهودي إلا أن أنكر ذلك من ثوبان عن طريق الاستفهام الإنكاري قائلاً : لم تدفعني؟ أي لماذا يكون منك ذلك؟ وأنا لا أومن برسالته، فكيف أدعوه (يا رسول الله)؟ وإنما أدعوه باسمه الذي سماه به أهله على عادة الناس في النداء ، ولم ينكر النبي ﷺ جواب اليهودي وغضبه من دفع ثوبان له، ولكنه أقبل

---

(١) صحيح مسلم ٢٥٢/١، وسنن النسائي ١٦٩/١ حديث ٨٣٠ باب صفة ماء الرجل وماء المرأة ، والمستدرك٥٤٨/٣، وسنن البيهقي الكبرى ١٦٩/١ تحقيق : محمد عبد القادر عطا الناشر : مكتبة دار الباز – مكة المكرمة ، ١٤١٤ هـ– ١٩٩٤م.

عليه ملبياً نداءه قائلاً : لقد صدقت إن اسمى محمد الذي سماني به أهلي.

وقد سأل اليهودي – وكان حبراً من أحبار اليهود عالماً بالتوراه – رسول الله ﷺ أسئلة عن مكان الخلق يوم القيامة وعن أولهم عبوراً على الصراط، وعن أول ما يهدي به أهل الجنة، وعن غذاء أهل الجنة وشرابهم، وجميع ذلك أخبار غيبية، ثم السؤال عن نوع الجنين وماء الرجل وماء المرأة، وهو استفتاء في حكم فقهي ، فأجابه النبي ﷺ عنها جميعاً، فكان ذلك سبباً في إيمانه وتصديقه بنبوته ؛ لأن من يعلم هذه الأشياء لابد أن يكون نبياً؛ لذلك قال في آخر الحديث: (لقد صدقت، إنك لنبي) .

لقد كان صبر النبي ﷺ وحلمه مع هذا الحبر دافعاً إلى إيمانه ودخوله في الإسلام ، ولم تكن إجابات الرسولﷺ على أسئلته إلا بتعليم الله له ووحيه إليه كما صرح النبي ﷺ بعد ذلك بقوله : (لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به) [١] .

وجاء نداء اليهود للنبي ﷺ باسمه العلم (يا محمد) في صحيح البخاري في ثلاثة مواضع، هي حديث شكوى الرجل اليهودي للنبي ﷺ من لطم الأنصاري له، وحديث الحبر السائل عن كنه المولى عز وجل، وحديث سؤالهم عن حكم الزنا.

وتتفق هذه الأحاديث في أنها جميعاً بلفظ واحد (يا محمد)، وأن النداء فيها وقع من يهودي على خلاف ما يقتضيه الأدب مع النبي ﷺ وتوقيره، وحسن دعائه من جانبين:

الأول: الكفر وعدم الإيمان ، وشأنهم في ذلك شأن أهل الكفر

---

(١) صحيح مسلم ٢٥٢/١.

ممن لم يؤمن بنبوته ﷺ .

الثاني: الإيذاء وعدم امتثال الأمر الإلهي فقد كان ذلك مما يؤذي النبي ﷺ إذا سمعهم يقولون ذلك، وهم أهل كتاب يعلمون صدق نبوته.

وقد ذكر العلماء أنه " لم يكن غير المسلمين يخاطبونه بقولهم : (يا رسول الله) بل كانوا يقولون : (يا محمد) " [١]

واليهود لم يخاطبوه ﷺ خطاب التكريم والتأدب مطلقاً، بل جاء نداؤهم متردداً بين النداء بـ(يا محمد) كما في هذه الأحاديث، أو يا (أبا القاسم) كما في غيرها.

ونداءات هذا السياق أيضاً وردت بروايتين إحداهما: (يا محمد) والأخرى:(يا أبا القاسم) ، وقد ذكر الإمام العيني: " أن الألفاظ التي كان النبي ﷺ يخاطب بها : يا محمد، يا أبا القاسم، يا رسول الله ، والأدب بل الأحسن أن يخاطب بـ(يا رسول الله) " [٢] وذلك تقسيم لأنواع الخطاب حسب نوعية المنادين، فنداء الاسم من غير المسلمين غالباً ، ونداء الكنية من اليهود غالباً؛ لأن نداء هذه الكنية خصوصاً لم يرد على ألسنة سواهم في المرحلة المدنية، وانفردوا به من بين المنادين للنبيﷺ وكان مرادهم من خطابه به هو الإشارة إلى المعنى الوصفي في الكنية ، فهو قاسم يقسم بينهم بالعدل كما فهم من معنى القاسم ، إذ جاءوا إلى النبيﷺ ينادونه به في سياق سؤال أو شكوى أو استفتاء أو خصومة ، وجميع ذلك يحتاج إلى الحكم بينهم بالعدل ، وإجابة أسئلتهم بالصدق، أما نداء اللقب فهو من المسلمين، وهو الأحسن في حقهم .

---

(١) عمدة القاري ٢٠٠/١٢.

(٢) السابق ١٠١/١٦.

١ـــ الحديث الأول: روى البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: " جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه وقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم في وجهي، قال: ادعوه، فدعوه، قال: لم لطمت وجهه؟ قال: يا رسول الله، إني مررت باليهود فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، فقلت: وعلى محمد؟ وأخذتني غضبة فلطمته، قال: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جزي بصعقة الطور" (١).

وقع نداء اليهودي للنبي ﷺ باسمه هنا مندرجاً تحت قول اليهودي في الحديث السابق: (إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله) وقد كان ذلك منهم على غير ما يقتضيه الأدب؛ فإن خطاب الاسم هنا يتضمن إيذاء النبي ﷺ وإيذاء شعور صحابته، وقد كان ذلك من خصال اليهود في معاملة النبي ﷺ وصحابته، وجرأتهم على مقام النبوة.

وعلى ذلك فإن قول اليهودي: (والذي اصطفى موسى على البشر) مندرج تحت هذا الباب ، وقد فهم الصحابي الذي لطمه أنه لم يقصد تعظيم نبيهم موسى عليه السلام وإنما يريد التنقيص من رسول الله ﷺ فغضب ولطمه هذه اللطمة، فجاء إلى النبي ﷺ يشكو إليه ما حدث.

وقد وضع أبو سعيد الخدري في صدر كلامه ما ينبئ عن هذه القصة مختصراً لها بقوله : (جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه) وهذا اليهودي لم يسم ، وقيل: اسمه فنحاص، وعزاه ابن بشكوال

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٧٠٠.

إلى ابن إسحاق. [١]

وقوله : (قد لُطِم وجهُه) جملة حالية من (جاء رجل) والفعل فيها على صيغة المجهول باختصار اسم الفاعل وإبهامه لتعلق الغرض بالفعل دون الفاعل ، وقد جاء تفسيره في قوله بعد : (إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم في وجهي) فذكر أنه رجل من الأنصار، وهو الثابت في معظم الروايات " وهو يضعف قول الحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا: إن الذي لطم اليهودي في هذه القصة أبو بكر الصديق؛ لأن ما في الصحيح أصح وأصرح" . [٢]

وقدم اليهودي نداء النبي ﷺ باسمه على شكواه حتى يضمن إصغاء النبي ﷺ وإقباله عليه، وإنصافه من خصمه الذي لطمه.

ونداء الاسم من اليهود فيه إيذاء وعدم توقير، وإنكار لرسالته ﷺ فقد جاءت نداءاتهم للرسول ﷺ بهذا الاسم في العهد المدني الذي استقرت فيه الآداب المتعلقة بندائه أو رفع الصوت بحضرته لكن اليهود لم يلتزموا هذه الآداب، فخاطبوه هذا الخطاب ونادوه بهذا النداء الذي يدل على الكفر وعدم امتثال الأمر الإلهي.

وقد ورد في الحديث نداءان للنبي :أولهما نداء اليهودي (يا محمد) الثاني: نداء الأنصاري (يا رسول الله) في قوله: (قال: يا رسول الله، إني مررت باليهود فسمعته) وهو اختلاف في العقيدة تبعه اختلاف في السلوك ونظم الكلام ، فنداء اليهودي موافق ليقينه في النبي ﷺ واعتقاده فيه من أكثر من جهة، وكذلك نداء المسلم نابع من يقينه في

---

(١) إرشاد الساري ١٢٨/٧ .

(٢) إرشاد الساري ١٢٨/٧.

رسالة (محمد) ﷺ فيناديه هذا النداء الدال على التكريم والتوقير والاحترام لا كما ينادي بعضهم بعضاً باسمه أو كنيته، وهكذا الكلام فيه وسم صاحبه وطابعه، وقد ظهر ذلك في هذين النداءين المختلفين.

والمتتبع لنداءات اليهود للنبي ﷺ بالمدينة يجد أن أكثرها قد ورد بلفظ (يا أبا القاسم) [١] دون لفظ (يا محمد) ، وقد ورد هذا الحديث بلفظ (يا أبا القاسم) في رواية مسلم عن أبي هريرة[٢]، والنداء بهذه الكنية من اليهود في الحديث النبوي منظور فيه إلى جانب الاسمية أو الوصفية أو التكريم حسب ما يقتضيه المقام.

وسياق الشكوى هنا يناسبه نداء الكنية من جانبين: الأول (الاسمية) حيث إن من الكنية ما يقوم مقام الاسم فيعرف صاحبها بها

---

(١) ورد ذلك في مواطن كثيرة من صحيح البخاري:١/٥٨ ، ٢/٧٤٦ ، ٣/١١٥٦ ، ٥/٢٣٨٩ ، ٦/٢٥٤٧ ، ٦/٢٧٩٦ .

(٢) ونصه: بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه – شك عبدالعزيز – قال لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ؟ قال فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهدا وقال فلان لطم وجهي فقال رسول الله ﷺ لم لطمت وجهه ؟ قال قال (يا رسول الله) والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا قال فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله قال ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث أو في أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى عليه السلام ، ينظر: صحيح مسلم ٤/١٨٤٣.

كما يعرف باسمه [١] فنودي بهذه الكنية لما فيها من الدعوة إلى الإقبال على المخاطب لاستماع الشكوى.

والثاني (الوصفية) فإن النبي ﷺ يكنى بأبي القاسم نسبة إلى أكبر أولاده أو لمراعاة معنى المدح في لفظ القاسم ، فقد ذكر النبي ﷺ قوله : (فإني إنما بعثت قاسماً أقسم بينكم) [٢] أي : الذي يلي قسم المال من نحو إرث وغنيمة وزكاة وفي تبليغ عن الله حكمه[٣] وذلك يناسب شكوى اليهودي واختصامه إلى رسول الله ﷺ فأراد أن ينبهه إلى ما في كنيته من جانب المدح المتعلق بشكواه، حتى يحكم له بمقتضى عدله في القسمة بينه وبين خصمه.

أما اختلاف لفظ المنادى في الروايتين فلاختلاف سماع كل من الصحابيين ، واختلاف نظم كلامه، ولا تعارض فيه، فاللفظان مما ينادى بهما رسول الله ﷺ، لكن لفظ (يا أبا القاسم) هو الأكثر وروداً في المرحلة المدنية على ألسنة اليهود، ولم يرد على لسان سواهم فيها، لكن رواية أبي سعيد واردة بالاسم دون الكنية لمناسبتها لما وردت فيه.

أما مناسبة كل نداء للنظم الوارد فيه ، فإن حديث أبي سعيد الخدري مبني على الإيجاز الذي يناسبه نداء الاسم الأقل حروفاً من الكنية، بينما يبنى حديث أبي هريرة على التفصيل الذي يناسبه نداء الكنية الأكثر حروفاً ، ومن مظاهر ذلك في الروايتين :

---

(١) لسان العرب ٢٣٣/١٥ مادة(كنى) .

(٢) صحيح البخاري ٧٤٦/٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي ٣٠٨/٩.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير عبد الرؤوف المناوي ١١٢/٤الناشر : المكتبة التجارية الكبرى – مصر – ط الأولى ، ١٣٥٦ه.

أن أبا سعيد ذكر قصة اللطم موجزة بقوله في صدر الحديث: (جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه وقال: يا محمد) ثم فصلها بعد ذلك، أما أبو هريرة فذكر القصة مفصلة أولاً قال: (بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، قال: فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال: تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال : فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم...الخ)، وكذلك فإن تفصيل القصة يناسبه ذكر الكنية الدالة على الفصل والحكم في هذه الواقعة لعرضها في صدر الحديث على نحو مفصل يحتاج إلى القسمة العادلة.

وقد تجاوز النبيﷺ أمر اللطمة، فلم يرد أنه أقاد اليهودي من المسلم فيها لكن الواقعة أثارت قضية خطيرة، وهي تفضيل الناس بعض الأنبياء على بعض، فأراد النبي ﷺ أن يوضحها للناس فقال: (لا تخيروني من بين الأنبياء) في رواية أبي سعيد ، وخص نفسه بعدم الأفضلية فقط لعدم ذكر أنبياء سواه في الحديث، وقال:(لا تفضلوا بين الأنبياء) بتعميم نفي الأفضلية في رواية أبي هريرة؛ نظراً لذكر يونس بن متى فيها، وقال ذلك تأدباً بما خصه الله به من الفضيلة. (١)

وقال الخطابي: معناه ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم، وذلك يؤدي إلى فساد الاعتقاد فيهم، والإخلال بواجب حقهم، وليس المراد أن يعتقد التسوية بينهم، فقد أخبرنا الله تعالى بأنه فضل

---

(١) شرح ابن بطال ٥٢/١٢ .

بعضهم على بعض. [١]

٢ـــ الحديث الثاني : روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: " جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) الزمر:٦٧ ".(٢)

بوّب البخاري لهذا الحديث تحت عنوان : باب ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ .

وهو يدور حول موافقة النبي ﷺ لقول الحبر اليهودي وتصديقه فيما قاله عن المولى عز وجل ، وقد ركز الحديث على ذلك من أول جملة فيه، فقد ذكر عبد الله بن مسعود أن القادم كان حبراً من الأحبار، والحبر هو العالم من علماء اليهود [٣]، وجاء في رواية أنه رجل من أهل الكتاب، وفي رواية أخرى أنه حبر من اليهود [٤]، والروايات يفسر بعضها بعضاً، ويعني هذا: أنه كان عالماً بما يقول، قارئاً له في الكتب

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي١/٧٤٤ تحقيق : علي حسين البواب ، طبع دار النشر / دار الوطن – الرياض – ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

(٢) صحيح البخاري ١٨١٢/٤ .

(٣) لسان العرب ١٥٧/٤ .

(٤) فتح الباري ٧٩٣/١٣.

القديمة؛ ولهذا فسر قوله : (إنا نجد ...الخ) بأنه في التوراه[١] فقال: (يا محمد) وهنا نلتقي بنداء اليهودي للنبي ﷺ باسمه (محمد) وتقديم النداء في أول كلامه ليضمن تنبه النبي ﷺ وإقباله عليه، وعبر بأداة النداء (يا) للدلالة على رفعة المنادى وبعد منزلته ، وذكر الاسم العلم دون الصفة أو اللقب على عادتهم في ندائه ﷺ وإضمارهم للإيذاء والتقليل من شأنه كما هو جارٍ في خطابهم معه ﷺ، ولا يخفى مكان الاسم في ذلك دون اللقب المدحى، نحو: يا رسول الله ، أو يا نبي الله.

والناظر إلى هذا النداء يجد أنه روي بلفظ (يا أبا القاسم)عند البخاري أيضاً [٢] وقد ورد الجمع بينهما في صحيح مسلم : (فقال يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك)[٣]

ولا تناقض بين الروايات لكنه اختلاف في سماع الصحابي راوي الحديث ، والنداءان مما ينادى النبيﷺ بهما على ألسنة اليهود، إلا أن هذا السياق مما يقتضي خطابه باسمه فالمقام مقام الاسم ، فهم يعرفون أن نبي المسلمين المبشر به من أحبارهم هو نبي من العرب اسمه محمد؛ لذا نادوه بهذا الاسم دون سواه، خصوصاً إذا علمنا أن قول اليهود كان بعد طلب النبيﷺ منهم أن يحدثوه ، وهو ما لم يذكر هنا ، لكنه ورد عند الترمذي من حديث ابن عباس : "أن يهودياً مر بالنبي ﷺ

---

(١) إرشاد الساري ٣٢٠/٧ .

(٢) صحيح البخاري ٢٦٩٧/٦ .

(٣) صحيح مسلم ٢١٤٧/٤ .

فقال: يا يهودي حدثنا ، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه" [١] وأشار بإصبعه أولاً، ثم تابع حتى بلغ الإبهام كما بين راوي الحديث. [٢]

فلعل استيقاف النبي ﷺ لليهودي أثناء مروره به ، ونداءه :(يا يهودي حدثنا)، هو ما دعاه إلى هذا القول، وقد اختصرت رواية البخاري ذلك، فابتدأت الكلام بحكاية مجيئه إلى النبي ﷺ ليقول هذا الكلام، فلم يكن ذلك داعياً للتهكم به أو إيذائه قولاً أو فعلاً ، علماً بأن ظاهر كنية أبي القاسم في نداء اليهود للنبيﷺ كان إيذاءً صريحاً له، لذا ورد النهي عنه ، فقد روى البخاري: (دعا رجل بالبقيع يا أبا القاسم فالتفت إليه النبيﷺ فقال: لم أعنك قال: سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي) [٣]وقد ذكر أن القائل لم يسم ، وقيل كان يهودياً ، وأن سبب النهي أن اليهود تكنو به ، إظهاراً للإيذاء[٤] ووجه الإيذاء أنه إذا ناداه فالتفت دون سبب كان ذلك إيذاءً له.

وظاهر الحديث أن النبي ﷺ صدق الخبر بضحكه وتلاوته لقوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وقد تآزرت الروايات المختلفة للحديث على أن ضحك النبي ﷺ وقوله إنما كان تصديقاً لليهودي وتعجباً من قوله ، وهو ما تواترت عليه روايات الحديث ، ففي البخاري: قال يحيى بن سعيد وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن

---

(١) سنن الترمذي ٣٧١/٥ تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) السابق ٣٧١/٥.

(٣) ينظر : صحيح البخاري ٢/ ٧٤٦.

(٤) ينظر : فتح الباري ١ /٢٩٥، وإرشاد الساري ٢٣/٦.

عبيدة عن عبد الله (فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لـه) ، وفـي رواية مسلم: (تعجباً مما قال الحبر تصديقا له) وفي رواية جرير عنده : وتصديقاً له بزيادة الواو.[١]

وذكر القاضي نقلاً عن بعض المتكلمين أن ضـحكه وتعجبـه وتلاوته الآية ليس تصديقاً للحبر، بل هو رد لقوله وإنكار وتعجب مـن سوء اعتقاده ، فإن مذهب اليهود التجسيم ففهم منـه ذلـك ، وقولـه : (تصديقاً له) إنما هو من كلام الراوي على ما فهم.

ورد التميمي بأن هذا تكلف من الخطابي؛ لأنه أتى في معناه ما لم يأت به السلف، والصحابة كانوا أعلم بما رووه، وقالوا: إنه ضـحك تصديقاً له، وثبت في السنة الصحيحة : (ما من قلـب إلا هـو بـين إصبعين من أصابع الرحمن) [٢] وقد اشتد ابن خزيمة على من ادعى أن الضحك المذكور كان على سبيل الإنكار ، فقد أجلّ الله تعالى نبيه عـن أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته فيجعل بـدل الإنكـار والغضب على الواصف ضـحكاً، بـل لا يوصـف النبـي ﷺ بهـذا الوصف.[٣]

وهذا الحديث من أحاديث الصفات، وللعلماء فيها مذهبان :

الأول: التأويل، وهو مذهب الخلف، فيتأولون الأصابع هنا على الاقتدار، أي خلقها مع عظمها بلا تعب ولا ملل، والناس يذكرون الإصبع في مثل هذا للمبالغة والاحتقار فيقول أحدهم: بإصبعي أقتل زيـداً، أي لا كلفـة علي في قتله.

---

(١) ينظر : فتح الباري ٣٩٧/١٣، وتحفة الأحوذي ٨١/٩.
(٢) المستدرك ٧٠٦/١ .
(٣) تحفة الأحوذي ٨١/٩ .

الثاني: الإمساك عنها مع الإيمان بها مع اعتقاد أن الظاهر منها غير مراد، وهو مذهب السلف، وهو أسلم، بل المتعين على مذهب الكثير.[١]

٣ـــ الحديث الثالث : ما رواه البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : " إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ، فقالوا : نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة ".[٢]

ذكر البخاري هذا الحديث في باب (قول الله تعالى: ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾[٣] فالاستدلال بهذا الحديث على كفر اليهود بالنبي ﷺ على الرغم من معرفتهم لصدقه ونبوته، ومعرفتهم باسمه أيضاً فقد كانوا يعرفون اسمه وصفته من أحبارهم.

وقد نادى اليهود رسول الله ﷺ باسمه (محمد) في قولهم: (صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما) كعادتهم في ندائه بهذا النداء المخالف للأدب، المشعر بالإيذاء، والحديث مبني من أوله على سؤال اليهود عن حد الرجم للزاني المحصن وقد كانوا يعرفونه من التوراة لكنهم حرفوا الكتاب فلم يكونوا يرجمونه، بل كانوا

---

(١) عمدة القاري ٨١/٩ .
(٢) صحيح البخاري ١٣٣٠/٣ .
(٣) السابق ١٣٣٠/٣ .

يفضحونهم ويسخِّمون وجوههم ويجلدونهم، لذلك دلهم النبيﷺ على الحكم من كتابهم فقال: (ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة) فلما أتوا بها وضع أحدهم وهو(ابن صوريا) يده على موضع آية الرجم، فرفع عبدالله بن سلام يده عنها، فوجدوا مكانها آية الرجم، فقالوا في سرعة: (صدق)، ونادوا النبيﷺ باسمه ليبلغوه بما وجدوه قائلين: (يا محمد فيها آية الرجم) والمقام هنا مقام الاسم؛ فقد عرفه الله أحكام دينهم المحرفة دون أن يطلع عليها في كتابهم، وهم يعرفون أن نبي المسلمين المبشر به من أحبارهم هو نبي من العرب اسمه محمد؛ لذا نادوه بهذا الاسم دون سواه ليعلموه بمعرفتهم له باسمه الذي يعرفونه ، وفي ذلك مدح له.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير من طلعت عليه الشمس، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد

فيطيب لي في ختام هذا البحث أن أذكر أهمَّ ما توصَّلتُ إليه من نتائجَ، فأقول:

١- النداء لون من ألوان الخطاب الذي يقصد به توجيه الكلام نحو الغير للإفهام ، سواء كان حاضراً أم غائباً ، وقد أوثر خطاب النبي ﷺ في مواطن كثيرة بالنداء على خطابهﷺ خالياً من النداء، وذلك لتعظيم المنادى، أو تعظيم الأمر المدعو له أو للحرص على إقبال المنادى حسب ما يقتضيه المقام.

٢- إن الحديث النبوي الشريف لا يكتفي بنَقْل أساليب النداء بألفاظها فقط ، بل إنه مع نَقْلِها بكلِّ دقَّة وأمانة يذكرُها بصيغة تصور ما يشعرُ به المتكلِّم نحو النبيﷺ أثناءَ كلامه.

٣- لا مانعَ من أن يُعلَّلَ نداء النبيﷺ بأكثرَ من عِلَّة، فقد يُؤْثِرُ الحديث على لسان النبي أو راويه تعبيراً ندائياً على غيره لحِكَم متعدِّدةٍ.

٤- تنوَّعتْ طُرُقُ الحديث النبوي الشريف ووسائلُهُ في تصويرِ الحالة النَّفسية للمتكلِّم أثناءَ ندائه، ومن هذه الوسائل:

أ. إيثارُ بعضِ ألفاظِ النداء على غيرها .

ب. إيثارُ أداةٍ على أخرى .

ت. إيثارُ أسلوبٍ على أسلوبٍ آخر مصاحب للنداء.

ث. مطابقة مُقْتضَى الحال.

٥- ورد نداء النبيﷺ بالاسم العلم (محمد) في (أربعة عشر حديثاً) بروايات مختلفة من صحيح البخاري ، موزعة على سياقات محددة بدقة تامة ، ولم يرد نداؤه بها في غيرها على ما أحصيت.

٦- جاء نداء الاسم العلم للنبي في الحديث النبوي خاضعاً لمقتضيات السياق وأحواله ، وهو يصور حالة المتكلم وشعوره نحو رسول الله ﷺ ، وينقل لنا جانباً مهماً من جوانب بيانه من جهة ، وبلاغة صحابته وسمت بيانهم من جهة أخرى.

٧- كان الاسم (محمد) دون سواه هو محل النداء من أسمائه ، وذلك لشرفه وشهرته، وهو اسمه عند قومه وأمته، أما الاسم (أحمد) فكان معروفاً به في الكتب السابقة.

٨- نودي النبيﷺ باسمه العلم(محمد)من طوائف متعددة من غير الكافرين على خلاف ما ذكره بعض أهل العلم من أن هذا النداء لم يقع إلا من الكافرين، أو الأعراب ممن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، فقد ناداه(الله)سبحانه وتعالى، وملائكته، وبعض الأنبياء، وبعض المسلمين في الآخرة، وقد وضح البحث أن ذلك وارد في موضعه بحيث لا يغني عنه سواه لتصوير القرب والتكريم والإيناس.

٩- نادى الأعراب رسول الله باسمه، والذي يلحظ في ندائهم جميعاً أنهم سلكوا فيه طريق الغلظة والجفاء وسوء الأدب وهم مسلمون، أما الكفار فقد اشتمل خطابهم للنبيﷺ على رقة ولين في القول تظهر باستقراء كلامهم وسياقه، والسبب في هذا – والله أعلم – هو أن الأعراب قد فعلوا ما فعلوه بسبب طبعهم الجاف الخشن، وكان خطاب النبيﷺ باسمه العلم تابعاً لذلك وخارجاً منه، ولم يكونوا يقصدون إلى أكثر من ذلك، أما السادة من كفار قريش فقد قصدوا من خطابه ﷺ باسمه ترقيق قلبه ناحيتهم، إذ جاء كل واحد منهم بشفاعة أو وفادة أو طلب عفو، فذكروه

بالاسم الدال على المدح إذا هو أجابهم إلى ما طلبوه، فهم بذلك ينظرون إلى الجانب الوصفي في الاسم ، كما أنهم بذلك غير مخالفين لاعتقادهم في النبي ﷺ من كونه غير رسول أو نبي، فلم يكونوا مؤمنين به، وهم غير مطالبين بنداء آخر.

١٠-أصل النداء بالاسم يقصد به إقبال المنادى، وتهيئته لتلقي الكلام، وهو يميز المسمى ويحدده، وقد تلمح فيه دلالة الوصفية، وقد يذكر للتبرك به، أو التلذذ بذكره، أو مواجهة المخاطب(النبي) وإنكار نبوته، أوغير ذلك حسب السياق، وقد ورد هذا النداء في سياقات متنوعة من الحديث الشريف على خلاف الوارد في القرآن الكريم، فإن الله تعالى نادى الرسول في القرآن الكريم بصفتي النبوة والرسالة ليتميز بهما، ويقتصر عليهما في النداء دون الاسم العلم، وعلى هذا فقد وردت نداءات القرآن لإبراز هذا المعني باختيار أحسن المسميات له ﷺ وهو وصف النبوة أو الرسالة، ولم يكن ذلك ليلتبس مع بقية الأنبياء عليهم السلام ؛ لأن خطاب القرآن الكريم خطاب للنبي ﷺ دون سواه، وهو حاضر شاهد يتلقاه عن ربه، ويبلغه أمته، أما الحديث الشريف فقد اشتمل على نداء النبيﷺ باسمه العلم (محمد) ؛ وذلك لأن المخاطبين فيه للنبيﷺ متعددون، متفاوتون في الدرجة والدين.

وأخيراً أرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه تعالى ، وأن يتقبله بقبول حسن، وأن يجزيني عنه خير الجزاء ،وصلَّى الله وسلَّم وبارَكَ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسَلينَ سيدِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، طبعة المعاهد الأزهرية.

٢- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

٣- الأساليب الإنشائية وأسرارها فى القرآن الكريم . د / صباح دراز ، ط / الأمانة ط/ أولى ١٩٨٦م .

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، طبع مكتبة الإيمان بالمنصورة - مصر، ط الأولى ،١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

٥- الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ، طبع دار الكتب العلمية، لبنان.

٦- البرهان في علوم القرآن الزركشي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٩١هـ .

٧- بغية الإيضاح للشيخ .عبد المتعال الصعيدي. طبع محمد على صبيح ط الثامنة .

٨- البيان والتبيين للجاحظ .تحقيق.عبدالسلام هارون .مكتبة الخانجي .ط السابعة ١٤٢٨ه/ ١٩٩٨م .

٩- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، طبع الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٤م.

١٠- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي .المباركفوري .الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت.

١١- تطريز رياض الصالحين . فيصل النجدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) تحقيق: د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد. الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض .ط/ الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م .

١٢- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك .السيوطي .الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

١٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري) ٢٥٦١/٦ تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ط الثالثة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٤- جمالية الخبر والإنشاء دراسة بلاغية جمالية نقدية ، د/ حسين جمعة منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٥م.

١٥- حاشية الدسوقى ضمن (شروح التلخيص).

١٦- حاشية السندي على النسائي لنور الدين السندي، تح:عبدالفتاح أبوغدة ، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط الثانية ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٧- رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين(دراسة بلاغية تحليلية) د/ يوسف عبد الله محمد العليوي(رسالة دكتوراه) مطبوعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - السعودية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

١٨- روح المعانى للآلوسي، طبع دار الكتب العلمية بيروت/أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

١٩- سنن البيهقي الكبرى، تحقيق : محمد عبد القادر عطا الناشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

٢٠- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي.النسائي .الناشر : دار المعرفة بيروت ،الطبعة : الخامسة ١٤٢٠هـ

٢١- سيرة ابن هشام. تح/ مصطفى السقا وآخرين. ط الحلبى/ ثانية٢٠٠١م.

٢٢- شرح أحاديث من صحيح البخاري د. محمد أبوموسى ، طبع مكتبة وهبة ط/ أولى ٢٠٠١م.

٢٢- شرح البخاري لابن بطال القرطبي تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم ، طبع دار الرشد بالرياض عام ١٤٢٠هـ .

٢٣- شرح المفصل لابن يعيش ، طبع عالم الكتب ، بيروت (بدون) .

٢٤- صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

٢٥- عمدة القاري في شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني طبع دار إحياء التراث العرب بيروت ، بدون تاريخ .

٢٦- عون المعبود شرح سنن أبي داود.محمد شمس الحق العظيم .الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ .

٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني الناشر : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩ هـ .

٢٨- فيض القدير شرح الجامع الصغير .عبد الرؤوف المناوي .الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر- ط الأولى ١٣٥٦هـ.

٢٩- الكشاف للزمخشري، طبع دار الريان ط / ثالثة ١٩٨٧م.

٣٠- كشف المشكل من حديث الصحيحين.ابن الجوزي.تحقيق:علي حسين البواب، طبع دار النشر/ دار الوطن- الرياض- ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٣١- الكليات "معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" للكفوي، تح:عدنان درويش،محمد المصري،نشر:مؤسسة الرسالة، بيروت١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٢- لسان العرب لابن منظور : ٣١٥/٥ ، ٣١٦ ، مادة (ندى) ط/ دار المعارف سنة ١٣٩٣هـ

٣٣- مخاطبة الناس على قدر عقولهم في البيان النبوي د/ محمدأحمد أحمد محمد أبو نبوت ، طبع مكتب وصفي القاهرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٣٤- مختار الصحاح للرازي تحقيق : محمود خاطر الناشر : مكتبة لبنان ناشرون– بيروت- ١٤١٥ه – ١٩٩٥م.

٣٥- المستدرك على الصحيحين الحاكم النيسابوري، تح: مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية،بيروت،ط الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٣٦- مشارق أنوار العقول للإمام عبد الله حميد السالمى، تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة. مكتبة الاستقامة. مسقط .

٣٧- المطول للسعد ، طبع دار الكتب العلمية بيروت ط/ أولى ٢٠٠١م ،

٣٨- مفتاح العلوم للسكاكي: تحقيق/ نعيم زرزور، طبع دار الكتب العلمية ، ط ثانية ١٩٨٧م.

٣٩- المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني مكتبة نزار مصطفي الباز الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٤٠- المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري، تحقيق : د.علي بو ملحم طبع دار ومكتبة الهلال – بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م.

٤١- مقدمة ابن خلدون ، طبع دار القلم ، بيروت١٩٨٤م ، ط الخامسة .

٤٢- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج .للنووي .الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ .

٤٣- النداء بين النحويين والبلاغيين د.مبارك تريكي، مقال منشور بمجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم ، الجزائر ، عدد ٧ سنة ٢٠٠٣م .

٤٤- نداء النبي بأوصافه في الذكر الحكيم مقاماته وأسراره البلاغية ، د. سلامة دردير محمد علي ، طبع مطبعة السلاموني، ط ٢٠٠٥م .

٤٥- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار .الشوكاني الناشر:إدارة الطباعة المنيرية، تعليق محمد منير الدمشقي.

٤٦- همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع للسيوطى:تح/ أحمد شمس الدين ط / دار الكتب العلمية / أولى١٩٩٨م.